مسيرة التفاعل الحضاري
وآفاق الحوار

د٠ محمود سعيد حميدة عطية (*)

مقدمة :

من الثابت أنه لا توجد حضارة قائمة بذاتها دون أن يكون لها علاقة بالحضارات الأخرى، وهذه الديناميكية بين الحضارات قد تتجلي بوضوح في صورة التأثير والتأثر أو في صورة الحوار أو الصراع بين الحضارات من خلال تساؤل البعض عن هذه العلاقة هل هي: حوار الحضارات أم صراع الحضارات؟ وعلى الرغم من عدم إمكانية وجودهما(الحوار والصراع) معا بيد أنهما يمكن ارتفاعهما معا كما يقول المناطقة؛ إذ قد يكون هناك علاقات أخرى كالتعارف بين الحضارات أو التحالف بينها أو التدافع والتعايش، لذا فقد آثرت أن يكون العنوان المعبر عن تلك الحركة المتغيرة بين الحضارات باسم التفاعل؛ لأن الحضارات لا تربطها علاقة واحدة ثابتة، وإنما تتبادل العلاقات فيما بينها بحسب مصالحها وأدوارها وتأثيرها وإن لم تخرج جميعا عن إطار الحوار الحضاري بمعناه الواسع لا سيما إذا عرفنا أن تلك الحضارات متنوعة ومختلفة فيما بينها الأمر الذي يقتضي علاقة تفاعل ما.

إذا كنا نسلم بأن الحضارات قديما لم تنقطع عن التفاعل دوما وإن كان على فترات متباعدة فإننا في عصر العولمة أمسينا أكثر اتصالا واقترابا بحيث اختزل الزمان وأضحى البعيد قريبا، وأصبحت الحضارات وكأنها حجرات صغيرة في

(*) مدرس بقسم الفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

بيت واحد ضمن النظام العالمي الجديد، ومن ثم فلا مناص لها من الاتصال والتفاعل، إذ ليس من وكد الحضارات – في واقع الأمر– أن تكون ساكنة لا حراك لها، إنما تنشط حركتها مع أخواتها من الحضارات الأخرى، وتدخل معها في علاقات جدلية يسودها أحيانا الصراع وتارة الحوار.

وبناء عليه فقد قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث وخاتمة مهدت لها بتناول العلاقة بين العولمة وحوار الحضارات ثم تناولت في المبحث الأول مسيرة التفاعل الحضاري بين التواصل والصراع، وفي الثاني تناولت مسيرة الحوار من الصراع إلى الصدام، وفي الثالث مسيرة الحوار الحضاري من التعارف إلى التحالف ثم خاتمة تناولت فيها ضرورة تكامل الحضارات وأهم النتائج التي توصل إليها البحث.وقبل أن أستعرض صور ذلك التفاعل يطيب لي أن أشير إلى موجز يسير عن الخلفية التي احتضنت تلك المسيرة من علاقات التفاعل صراعا وحوارا ودفعت إليها.

* *

تمهيد : العولمة وحوار الحضارات

العولمة أو الكوكبة أو الكوننة، أو النظام العالمي الجديد، أو الأمركة، أسماء كثيرة لشيء واحد يسعى إلى إيجاد معايير متساوية أو متكافئة ذات مستوى رفيع لكل نشاط إنساني وإنتاجي على ظهر الكرة الأرضية محققًا الرفاه الاقتصادي لهم، فإن كان هذا المعنى في ذهن منظري العولمة بوجهها الإيجابي والداعين إليها فإن وجود مثل هذه المعايير يخفف كثيرًا –إن لم يكن يلغي – من العوائق العرقية واللغوية والدينية والاقتصادية والعلمية والثقافية التي كان لوجودها منذ قديم الزمان أثرٌ في تقسيم البشر إلى أجناس وشعوب وأمم ودول وألسن وحضارات، وفي نشوب حروب كثيرة وصراعات دامية وخلافات لا حصر لها. ولكن واقع الأمر يدور على وجه العولمة الحقيقي الذي انتهي معه زمن الاستقطاب بين النظام الاشتراكي الشيوعي والنظام الرأسمالي الليبرالي ليصبح العالم قطبا واحدا هو النظام الرأسمالي الأخير الذي انتصر في الحرب الباردة ليعيد تشكيل النظام العالمي الجديد ذو الوجه الأمريكي المهيمن.

وتعد فكرة حوار الحضارات هي الأساس الذي يمكن وضعه كضمان لتقبل فكرة الكوكبية ونجاحها[١] ومن الواضح أن الحاجة إلى الحور الحضاري باتت ضرورة أكثر من ذي قبل؛ لأن العالم المترامية أطرافُه صار أكثر قربًا بعد ثورة الاتصالات الحديثة وطفرة المخترعات التكنولوجية الهائلة في عصر ما بعد التكنولوجيا، وحرية انتقال رؤوس الأموال والبضائع والمعلومات من بلد إلى آخر. ولكن في واقع الأمر أن هذا الاقتراب لم يكن عشوائيًّا وإنما هو اقتراب من المركز الذي يتحكم ويسيطر من خلال الشركات المتعددة الجنسيات التي تمثل النشاط الاقتصادي والقواعد العسكرية في أغلب دول العالم

(١) د. محمد حمدي إبراهيم: حوار الحضارات، ص٤. بحث منشور على موقع http://www.askzad.com بتاريخ ٢٠١٨/٣/١٣.

وخصوصا العالم العربي والإسلامي التي تمثل النشاط العسكري، الأمر الذي يذكرنا بصورة الاستعمار القديم ولكن بصور مختلفة أكثر نعومةً وأشد خطورةً في ذات الوقت؛ لأن هذين الذراعين تعملان من أجل تحقيق مصالح القوى العظمي الوحيدة في العالم بفرض ما تريد ولو بالقوة.

وليست هذه الهيمنة عسكرية فحسب كما كان الاستعمار في الماضي، ولكنها هيمنةٌ ناعمةٌ يستخدم فيها كثير من النُّخب الثقافية والإعلامية والحاكمة التي تتوهم أنها جزءٌ من النظام العالمي الجديد وأنها تستثمر فيه عن طريق بعض الصفقات وغيرها من المصالح الجزئية التي تعود عليهم بنفع محقق في مقابل الترويج لقيم الحضارة الغربية التي باتت تستند في عصر ما بعد الحداثة أو الحداثة السائلة إلى اللامركزية والتعددية وأن يكون الإنسان غير الغربي قيمة استعمالية أو استهلاكية فقط مَثَله كمثل الأشياء الطبيعية فدوره فقط هو أن يكون مستهلكًا للمنتجات الغربية، ومدربًا على ثقافة الاستهلاك والاستبدال للجديد بالقديم[1] وإذا كانت هناك بعض الشعوب في بعض الدول الأفريقية أو الآسيوية – مثلا– لا ترقى إلى مستوى أن تكون شعوبًا مستهلكةً، بمعنى أن لا تمتلك الحد الأدني من ضروريات الحياة فلا بد من تنميتها حتى تصل إلى هذا المستوى الذي يسمح لها بالاستهلاك؛ أي إنه من الضروري إنشاء طرق في تلك البلاد الفقيرة من أجل السيارات المستوردة التي يمكن الحصول عليها بقروض بنكية ميسرة، وتوصيل الكهرباء بها من أجل استيراد الثلاجات والتليفزيونات، والكمبيوتر وسائر الأدوات الكهربائية، بل إنشاء المدن لنقل

(١) أقصد هنا الحرص الدائم على متابعة كل شيء جديد لا لشيء إلا لجدته كأن يغير شخص هاتفه مع كل موديل جديد، ومن ثم يتعود على ثقافة الاستبدال والتغيير والانتماء إلى الجديد فقط دون القديم لمجرد إنتاج موديل جديد أو موضة جديدة، وهذا مرتبط بالمستوى الاقتصادي المرتفع كذلك، فالدول ذات الدخل المرتفع تشيع فيها هذه الثقافة.

الإنسان وترويضه من طبائع القبلية إلى تحضر المدنية، وبذلك يتحول الإنسان الفقير أو المواطن من كونه فقيرا معدما لا يمكنه الاستفادة من المنتجات الغربية بإطلاق لافتقاده إلى ضروريات الحياة إلى وضعه وفق خطه سياسية واقتصادية يكون ذلك الإنسان الجديد صالحا للاستهلاك عبر المنح والقروض التي تقدمها المؤسسات العولميّة الكبرى، مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وغيرها، وفي الوقت الذي يتحضر فيه الإنسان المعدم تكون فيه النخب الحاكمة وغيرها من الوكلاء قد التحقوا بركب الثروة العالمي وزاد ثراؤهم وانتماؤهم إلى هذا الاقتصاد الرأسمالي الحر، وبذلك تذوب الخصوصيات وتذوب الهويات وتضيع القيم وتنحدر المبادئ ويختزل العالم في مصنع ينتج (دول العالم الأول) وسوق أو مول كبير(دول العالم الثالث) و(إنسان مستهلك يبحث عن لذة شهوانية جنسية أو سلعة استهلاكية امتلاكية) ويتتابع ذلك كله تحت شعارات وأسماء مثل نشر التنمية والمدنية ونشر الديمقراطية والحرية، فضلا عن الدعوة إلى حقوق الإنسان ومحاولة إنقاذه من الدكتاتورية والاستبداد.

ومن الواضح أن فكرة الحداثة وما بعد الحداثة تعدُّ هي الإطار المعرفي والقيمي الكامن للنظام العالمي الجديد، بل المرجعية على الرغم من كونها ترفض أن تعطى للتاريخ أي معنى وللإنسان أية قيمة أو مركزية أو إطلاق، وتسقط كل الأيدولوجيات، وتنكر التاريخ (عصر نهاية التاريخ)[1]وعلى الرغم من كونها تنكر المركز والمرجعية وتقر بالتعددية بيد أنها تخضع في نهاية الأمر للمركزية الأمريكية، وذلك من التناقض الذي عُرف به عصر ما بعد الحداثة،الأمر الذي دفع المفكرين الغربيين لاسيما المعنيون منهم برسم الخطط

(١) د. عبد الوهاب المسيري: في نهاية التاريخ وصراع الحضارات، بحث منشور ضمن كتاب صراع الحضارات أم حوار الثقافات، تحرير، د. فخري لبيب، منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية، المنيل، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٠٤.

الاستراتيجية من خلال المراكز البحثية ذات الاختصاص إلى التنظير للمستقبل بوضع رؤى مستقبلية للحضارة الغربية ورأس حربتها الولايات المتحدة الأمريكية كي تحذر أو تنبّه أو تُشخص أحيانا أو ترسم الطريق بعد انتهاء الحرب الباردة للعالم الجديد، ومن هنا جاءت نظريات ترسم العلاقات الدولية من جديد، مثل: نهاية التاريخ، أو الصراع والصدام بين الحضارات التي سوف نتناولها بالتفصيل بعد قليل.

ومن هنا يطيب لنا أن نرصد تلك العلاقات باعتبارها تمثل جانب التفاعل الحضاري بين الحضارات المختلفة[1]، فلا تعيش حضارة وحدها لاسيما في ظل تحديات العولمة في عالمنا المعاصر التي تدفع الحضارات إلى ضرورة التفاعل بعد أن تقارب الزمان واختُزلَ المكان وفرضت الحضارة الغربية نفسها على غيرها من الحضارات باعتبارها نموذجا يحتذى، ولا ريب أن كثرة تلك العلائق تدل على تفاعلها فيما بينها(تواصل، حوار، صراع، صدام، تعارف، تحالف، تكامل، تداول) وتدل على جانب حركيّ أو إن جاز القول إشعاعي، ومن صور التفاعل الحضاري كما هو مبين بالشكل الآتي:

(١) يجدر الإشارة إلى أن أحد الباحثين قد طرح التفاعل بديلا عن الصدام والصراع الحضاري وأتفق معه في قوله إن للتفاعل علاقات أكثر من العلاقة الجدلية إذ يقول: "فالموقف المنطقي الذي ينبغي أن يسود في العلاقة بين الحضارات، هو موقف التفاعل، لا نلغي بذلك جدلية الصراع والمدافعة الاجتماعية ... لأن التفاعل بين الحضارات لا يعني الجمود والتكلس والرتابة ... وإنما يعني المزيد من التنافس وإثبات الجدارة الذاتية" محمد محجوب: الإسلام والغرب وحوار المستقبل،المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١/١٩٩٨، ص١٢٧.

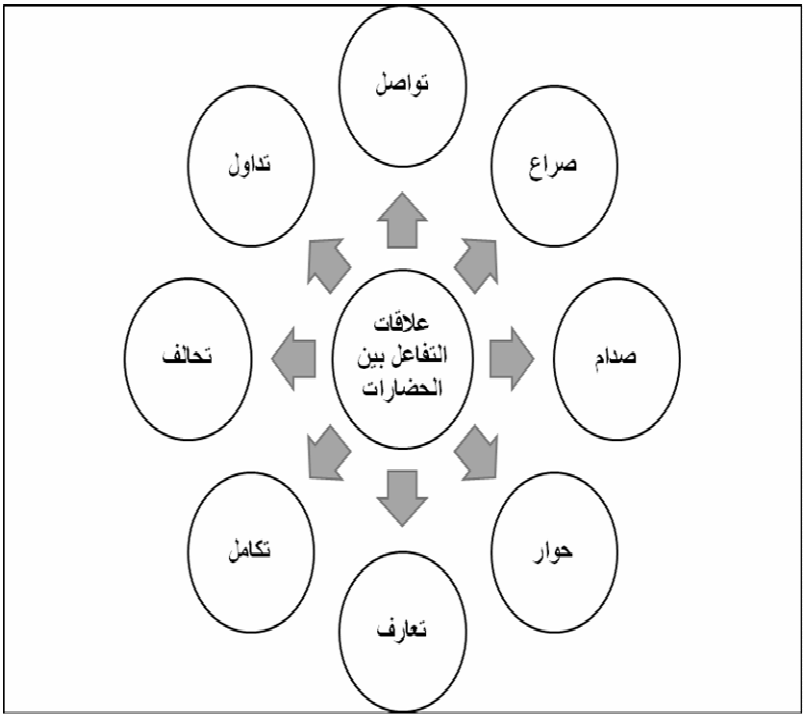

شكل يوضح علاقات التفاعل بين الحضارات.

المبحث الأول:

مسيرة التفاعل الحضاري بين التواصل والصراع.

أولا: التواصل الحضاري (التأثير والتأثر).

يتردد كثيرا بين الباحثين أن الحضارات تتواصل فيما بينها بأن يأخذ اللاحق عن السابق أو يأخذ بعضها من بعض سواء أكان ذلك من خلال خط زمني أفقي تتعاصر فيه تلك الحضارات جنبًا إلى جنب كما يقول د. فروخ: "فحضارة كل أمة إنما هي تطور من حضارات الأمم التي سبقتها في موضعها من العالم في الأكثر وفي غير موضعها من العالم في الأقل. فالأمم لا تسير منفردة في التاريخ، ولكنها تسير متعارضة – جنبًا إلى جنب–هي والأمم المعاصرة لها. من أجل ذلك قلَّ أن نجد أمة في نطاق التاريخ الذي وصلت إلينا أخباره تعيش في حضارة خاصة بها لا صلة لها بالذين سبقوها في التاريخ ولا صلة لها بالأمم التي تعيش معها في الزمان"(١) أو في خط زمني تنازلي بأن يأخذ اللاحق عن السابق وفق عدد من المراحل المترابطة كما رأى د. خليفة حسن بحيث "لا نستطيع فهم المنجز الحضاري اليوناني بدون ربطه بالمنجز الحضاري الشرقي في مصر وبلاد النهرين، وبلاد فارس والمنطقة السورية، بل وبلاد الهند والصين صاحبة الحضارات القديمة السابقة على حضارة اليونان والرومان بآلاف السنين، وفي مرحلة تالية لا نستطيع فهم المنجز الحضاري الإسلامي بدون ربطه بالمنجز الحضاري اليوناني والروماني حيث اعتمدت الحضارة الإسلامية في جانبها المادي والدنيوي على منجزات الحضارات السابقة عليها، ومن أهمها حضارات اليونان والرومان والفرس والهنود،

(١) د. عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢/١٩٨٢م، ص٤.

والمصريين والعراقيين والسوريين ... وغيرهم ... وفي مرحلة تالية لا يمكن فهم المنجز الحضاري الأوروبي الحديث بدون ربطه بمنجزات الحضارة الإسلامية حيث اشتغل المستشرقون على هذه المنجزات وترجموا أعمالها من العربية إلى اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة، وفي المرحلة الأخيرة التي نعيشها ونعاصرها يقوم المسلمون بالاستفادة من المنجز الحضاري الغربي الحديث والمعاصر في بناء الحضارة الإسلامية من خلال الترجمة وإرسال البعثات التعليمية إلى الغرب.(١) وهذا الارتباط والتدافع حقيقة مستقرة بل هي مسلمة عند أغلب الباحثين بل هناك من يرى أنها سنة الله الكون والحياة كما قال الدكتور عبد الهادي أبو ريدة: "فمن سنة الكون والحياة أن تفيد كل حضارة مما قبلها وأن تؤثر فيما بعدها، من خلال حوار حضاري وكيف لا... والعلم كما نعلم تراكمي، إن الحضارة وليدة الجهد الإنساني في كل زمان ومكان. وقد سبق أن أكدنا أن المجتمع هو حامل الحضارة التي هي وعاء لكل الجهود الإنسانية التي ساهمت فيها الإنسانية جميعها"(٢)

وعلى صعيد آخر نجد أن علاقة التواصل بين الحضارات توصف بالبنوة أحيانا كما عبر عنها المستشرق الإنجليزي "أرنولد توينبي" حيث رأى أن عدد الحضارات ١٥ حضارة منها ١٢ حضارة لها اتصال بحضارات سابقة بصلة البنوة(٣)، ومن تلك الحضارات الحضارة المسيحية الغربية، أي حضارة البلاد

---

(١) انظر: د. محمد خليفة حسن أحمد: الحوار منهجا وثقافة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، ط١/٢٠٠٨، ص١٢٦، ١٢٧.

(٢) د. محمد عبد الهادي أبو ريدة: الإسلام والحضارة، ج٣، حققه وقدم له د. فيصل بدير عون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١/ ٢٠١١، مقدمة المحقق، ص١٨.

(٣) ولا غرو في ذلك فقد رأى جورج سارتون في كتابه "تاريخ العلم" قوله "فمن سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الإغريق، فإن المعجزة اليونانية سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم، والعلم اليوناني=

التي اعتنقت اللون الغربي من المسيحية الكاثوليكية والبروتستانتية وحضارة المسيحية الأرثوذكسية، أي البلاد التي اعتنقتْ المذهب الأرثوذكسي من المسيحية – وهي بلاد البلقان وروسيا فقد ارتبطت بصلة البنوة بالمجتمع المينووي ومركزه كريت، وكذلك الحال إذا تتبعنا المجتمع الإسلامي في أصوله سنجد أنه حصيلة مجتمعين متميزين هما: الإيراني والعربي. وهما يستمدان من المجتمع السوري الذي استمد من المجتمع السومري، وهذا المجتمع السومري من ضمن مجتمعات ستة انبعث مباشرة من البادية، وهي: المصرية – السومرية– المينووية– الصينية– المايانية– الانديانية.(١) ونظرة توينبي هذه تتسق مع رؤيته للحضارة بأنها كائن عضوي مثل الإنسان، يحيا ويموت.

وهناك وصف آخر للتعبير عن علاقة التواصل بين الحضارات أكثر امتداد من وصف البنوة السابق، وهو العائلات الحضارية، فإن كان الوصف الأول هو البنوة، ويركز على الاتصال أو التمازج فإن الوصف الثاني (العائلات الحضارية) يركز على الانفصال والتمايز وفقا للعائلة الحضارية التي تنتمي إليها فالتواصل بينها والتفاعل يختلف من عائلة حضارية إلى أخرى، إذ يقول منير شفيق: "إن الاختلاف على سبيل المثال لواضح في العلاقة التي تربط فيما بين الحضارات الإغريقية والرومانية والإنكلوسكسونية والجرمانية، وفي العلاقة التي تربطها مجتمعة ومنفردة بحضارات الشعوب التي انتسبتْ إلى عائلة

=كان إحياء أكثر منه اختراعا" ونقل غيره هذا النص قائلين "المعجزة اليونانية لها أب وأم شرعيان أما أبوها فهو تراث مصر القديمة وأما أمها فهي بلاد ما بين النهرين" انظر: ج١، ترجمة لفيف من العلماء بأشراف د. إبراهيم بيومي مدكور، المركز القومي للترجمة، ميراث الترجمة عدد ١٦٣٨، القاهرة، ط١/٢٠١٠، ص٢١.

(١) أرنولد توينبي: دراسة التاريخ، فؤاد محمد شبل، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة، مكتبة الأسرة ١٩٩٤، ص١٢، ١٣.

الحضارة الإسلامية"[١] فالتواصل داخل العائلة الحضارية يكون أقوى وأكثر اتساقًا لما يوجد بينها من أواصر قوية تسمح بذلك، فالأهداف والاتجاهات والحاجات تكاد تكون واحدة، أما بالنسبة للحضارة الإسلامية في علاقتها مع الحضارة الأوربية ملحقًا بها الحضارة الأمريكية فيرى أن موضوع التواصل كما يشيعه التغريبيون هو أن نأخذ عنهم العلم والتِّقانة، وهذا قد يكون حقًا يُراد به باطل؛ إذ إنهم يعلنون ذلك ويأخذون بالفعل الأهداف والتوجهات والأفكار والأيدولوجيات الغربية، ويرى "شفيق" كذلك أن العلوم والتقانة وضعت لهدف واحتياج غربي نحا تجاه السيطرة وإخضاع الآخر، وليس في كل الجوانب الإنسانية، ومن هنا برعوا في صناعة السلاح، وهذه المنتجات الغربية إذا نقلت فهي تنقل بأهدافها وتجعل منا مجرد مستهلكين تابعين، وكان أولى بنا أن نأخذ عنهم قوانين العلوم كما أخذوا من حضارتنا ثم نطورها وفق احتياجاتنا نحن، وهذا ما لم تسمح به الحضارة الغربية حتى تحقق سيطرتها ورغبتها في أن تكون بلادنا سوقا للمنتجات فقط. فهي تحتكر العلم وقوانينه وكان أولى به إن رام التواصل والتفاعل أن يهب الحضارات الأخرى أسرارها حتى يتمثّلها وفقًا لأهدافه وثقافته وحضارته في صورة منجزات حضارية تميزه عن غيرها[٢] فإذا كنا نتفق معه في تلك المقدمات فإننا لن نسلم له في النتائج إذا يقول: "إن مراجعة معمقة للأساسات التي قامت عليها كلٌّ من عائلة الحضارة الإسلامية وعائلة الحضارة الأوروبية، لا تترك مجالا للشك في أن لكل منهما طريقا مختلفا وسياقا خاصا فهما لا تلتقيان إلا لتتبارزا وتتعارضا وتنفي إحداهما الأخرى"[٣] ولا ريب أن هذه نظرة متشائمة نوعا ما بل تصب في إطار نظرية

(١) الإسلام في معركة الحضارة، دار البراق للنشر، تونس، ط١/١٩٩١، ص٣١.

(٢) انظر: السابق، ص٢٣ وما بعدها.

(٣) انظر: السابق نفسه.

صدام الحضارات التي سنتعرض لها بعد قليل فلم تنفِ الحضارة الإسلامية حينذاك الحضارة الأوربية(اليونانية) كما تحاول أن تفعل الأخيرة بأختها.

ومن الواضح أن هذه الحضارات الثلاث:(اليونانية والإسلامية والغربية) كان لها تأثير وإشعاع ثقافي ما يزال أثره حتى يومنا هذا على الرغم من تتابعها في خط زمني واحد يبدأ من اليونانية التي انتهت، ثم بدأت الحضارة الإسلامية متوسطة بينها وبين الحضارة الغربية الحديثة، فعلى الرغم من ظهور حضارات كثيرة ظلت حية فترات طويلة من الزمن قبل أن تتلاشى وتصبح أثرا بعد عين فإن الحضارات الثلاث لم تتزامن مع بعضها إذ الحضارة الإسلامية جاءت بعد أفول الحضارة اليونانية و(الفرعونية)، كما أنّ الحضارة الغربية أخذت تنمو باطّراد وقت تراجع الحضارة الإسلامية وتقهقرها، فالملاحظ أنّ هناك خطا زمنيا وراء البزوغ والأفول يدعو الباحث أن يتساءل عن علاقة هذه الحضارات ببعضها فهل كانت تبحث عن إشكالية مشتركة أم لكل منها إشكاليتها الخاصة؟[1] وهل الحضارة واحدة أم متعددة؟ بعبارة أخرى أوضح هل هناك حضارة إنسانية واحدة تستوعب كل الحضارات السابقة عليها وتتبعها كل الحضارات اللاحقة لها؟ أو بعبارة أخرى هل العالم ينطوي على حضارة إنسانية واحدة أم حضارات متعددة؟ إذا سلمنا بأن العالم ما هو إلا حضارة إنسانية واحدة فلن يكون هناك حوار وإنما يجب التسليم بهيمنة تلك الحضارة على العالم كله، وإذا قلنا بأن هناك حضارات مختلفة فمن المحتمل أن تكون هناك علاقات بينها[2] وأتفق مع الرأي الثاني الذي يرى أن الحضارات متعددة ومتمايزة وفق الزمان والمكان والأفكار والدين وغيرها.

---

(١) انظر: يحيى محمد، حضارة بين حضارتين. الحوار المتمدّن. العدد ٣٠٧٣. ٢٠١٠/٠٧/٢٤م: www.alhewar.org –

(٢) د. أحمد محمد العسال: حوار الحضارات، مرجع سابق، ص١٣.

يرى بعض الباحثين "أن الحضارات يستعير بعضها من بعض، لا عن طريق الامتزاج اللاإرادي فحسب، ولكن عن طريق الاختيار، ومثل هذا التقليد هو أخلص اطراء إن الحضارة التي تستعير بوعي تفضل ما تستعير، والثقافة التي تعير تفضل ما لديها، وكلاهما يتوجه إلى نفس المقياس وعن طريق هذا التشابه في الاهتمامات ونظم التفضيل، تصبح الحضارات قابلة للقياس، وقد تعتبر إحداهما أعلى أو أدنى من الأخرى وفقا لشروط يمكن أن يستخدمها مؤرخ محايد أو ناقد"(١) وإذا كان يمكن المفاضلة من بعض الوجوه لاسيما إذا افترضنا تشابه نفس الظروف فإننا في النهاية لم نصل إلى تفضيل حضارة على أختها من كل الوجوه؛ لأن كل حضارة لديها جوانب متعددة قد تتميز في جانب معين كالعلم أو الأخلاق أو النظام السياسي ولكنها لا تعطينا حكما كليًّا على الحضارة كلها، وبناء عليه فأرى أن الحضارات لا تتفاضل كليا إلا من بعض الوجوه أو في الوقت الذي تكون فيه قائمة والأخرى زائله، وذلك ما تبناه أحد فلاسفة البنيوية حيث "ذهب شتراوس إلى أن جميع الحضارات متوازية في الأفضلية ولا ينبغي أن نعلي حضارة على حضارة لأن التآزر والحوار بين الحضارات هو ما ينبغي أن نتطلع إليه وليس هناك أي مجال لأفضلية حضارة على غيرها؛ لأنه لا يوجد لدينا معيار للتفاضل ويعقب أحد الباحثين على ذلك فيقول يبدو هنا أن شتراوس في صورة المفكر الموضوعي الذي أعاد الاعتبار لكل حضارات العالم وجعلها جميعا على قدم المساواة مناديا بضرورة الحوار بينها"(٢).

---

(١) رالف بارتن بيري: أفاق القيمة دراسة نقدية للحضارة الإنسانية، ترجمة عبد المحسن عاطف سلام، مراجعة محمد على العريان، تقديم زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١، ص٥٠٤.

(٢) مصطفى غلوش: الفلسفة البنيوية رؤية نقدية، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، ط١/١٩٨٩، ص١٠٤.

يرى بعض الباحثين أنه نتيجة لهذا التقارب والتواصل الهائلين فليست هناك حضارات خالصة؛ لأن الحضارة – في نظرهم – ليست نتاج أمة معينة ولا عصر واحد، وإنما هي حصيلة تراكم المعرفة العلمية عند الأمم السابقة وخلال العصور المتلاحقة فهي لذلك حضارة إنسانية مشتركة. والحضارة السائدة في كل عصر هي في الغالب حضارة واحدة أخذت من الحضارات السابقة لها وتعطي الحضارات التالية لها، ولا توجد حضارة صافية لم تخالطها عناصر من حضارة أو حضارات قبلها، أو لم تتفاعل معها؛ ومن ثم تكون هذه الحضارة السائدة هي حضارة إنسانية عالمية شاملة ولا يجور أن تدعيها أمة بعينها وإن اتخذت أسماء الأمم أو الأديان في كل عصر فيقال الحضارة البابلية أو المصرية القديمة أو الإغريقية أو الرومانية أو البيزنطية أو الإسلامية أو ما هو قائم الآن ويسمى الحضارة الغربية، وهي الحضارة الواحدة السائدة منذ ثلاثة قرون، التي نهلت منها اليابان وبدأت نهضتها بتقليدها، وحاول "محمد على باشا" في مصر الاقتداء بها والغرف من معينها، واتجه إليها قياصرة روسيا ليقتبسوا منها وينتقلوا بذلك إلى العصور الحديثة، وكذلك فعلت الدولة العثمانية ولم يكن الدين حائلا دون كل ذلك[١] ثم ينتهي إلى النتيجة التي يقول فيها الحضارة المادية الغربية "ولأنها حضارة واحدة سائدة فهي لا تتعدد ولا تتصارع"[٢] وإنما الصراع يكون بين الثقافات وليست الحضارات. ويتفق "بروس" مع هذا الرأي إذ يرى أن هناك حضارة عالمية واحدة وثقافات محلية، أي أن الحضارات تمثل ثقافات محلية للحضارة العالمية لا سيما في عصر العولمة كما يقول: "يمكن أن

(١) انظر: د. ناصر الدين الأسد: حوار الحضارات تحرير المصطلح والمنهج، منشور ضمن كتاب حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي، مراجعة وتقديم خالد الكركي، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الأردن، ٢٠٠٤، ص٢٨.

(٢) السابق نفسه، ص٢٩.

نتخذ موقفا يفيد بأنه وإلى حدود القرن الواحد والعشرين، ما كان يعد حضارات سابقا، كالحضارة الصينية والحضارة الإيرانية وغيرها- يمكن اعتبارها اليوم وبشكل أفيد ثقافات. وعليه فهي تملك وجودا شبه مستقبل، ولكن فقط جزء من حضارة مشتركة أوسع".[١] يقصد حضارة عالمية ليس فيها ثنائية الهمجي والمتحضر، وتتخلص من منطلقات التعالي نحن وهم، ولا تعرف المركزية.

ثانيا: الصراع الحضاري (الاستعمار الجديد ونهاية التاريخ)[٢]:

الصراع لغة مأخوذ من مادة (ص. ر.ع) وصرع، يصرع صرعا: أي، طرحه على الأرض أو أهلكه، والصراع يكون بين شخصين أو طرفين يحاول كل منهما أن يتغلب على الآخر بطرحه أرضًا(صورة حسية) فيكون الفعل مصارعة كي يحل محله أو يفنيه(صورة معنوية)، والصراع له صور مختلفة فقد يكون الصراع بين قوتين أو رغبتين أو حضارتين ... بحيث يحاول كل طرف منهما- في نزاع مسلح أو في غيره- أن يقضي على الآخر، أو يحتوي

(١) انظر: بروس مازليش: الحضارة ومضامينها، مرجع سابق، ص١٣٠.

(٢) كان المستشرقون قديما يثيرون الشبهات حول دعوى ما يسمى بانتشار الإسلام بالسيف وجاء أحفادهم وأحيوا نفس الشبهة من جديد، على الرغم من تكذيب الواقع الحالي لهم فانتشار الإسلام الآن على الرغم من ضعف المسلمين وهوانهم ليس بالسيف ولا بالدعوة كذلك ومع ذلك أصابتهم حالة الإسلاموفوبيا، وفي المقابل نجد أن الغرب يحاول فيه بكل ما أوتى من قوة أن ينشر ويعولم ثقافته وقيمه وأنظمته تحت ستار ما يسمى بنشر الديمقراطية والحرية حتى أنه غير أنظمة بلدان مثل العراق وأفغانستان ودمرها وغيرها، ويسعى جاهدا إلى ترسيخ الأنظمة العلمانية في العالم العربي ويدعمها وعلى الرغم من كل ذلك لم يتهمهم أحد بأنهم إرهابيون أو ينشرون أفكارهم عن طريق الاستعمار الجديد بل التهمة ثابتة على العالم العربي والإسلامي المدان والذي يبدو أنه قد حكم عليه بالإعدام مع نظرية صدام الحضارة واعتباره الإرهابي المدان.

بقاياه كما فعلت الحضارة الإسلامية مع حضارة الفرس، أو يقضي عليه ويخرجه من دائرة التاريخ والحضارة كما فعلت قديما الحضارة الرومانية مع اليونانية أو يخضعه لسطوته كما يحدث الآن بين الحضارة الغربية الحديثة ذات الطابع العولمي الأمريكي والهويات الثقافية الخاصة بالحضارات الأخرى. وقد استعمل القرآن لفظ الصرع مرة واحدة في صيغة الجمع بسورة الحاقة في تذكيره لمحمد وقومه بمصير أصحاب حضارة بائدة، هي حضارة قوم عاد الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية تحدث عنها القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧] أي هلكي مطروحين أرضًا.

ولا ريب أن تلك الحركة المتصارعة أو الديالكتيك الجدلي يحاول أن يمنح الحياة شيئا من الديناميكية والتطور سواء أكان ذلك الصراع للأفضل أو للأسواء، وكل ذلك ناتجٌ عن تناقض المصالح وتضاربها، ومن ثم نجد مثلا صراعًا ضاريًا بين الذين يملكون من الرأسماليين الليبراليين أو(البرجوازيين) والذين لا يملكون من الفقراء والمعدمين أو (الطبقة العاملة البروليتارية) أو بين الحرب والسلم، ويترتب على ذلك أن تكون الغلبة والقنص والسبق والطعن والعدوانية هي أبرز سمات الصراع.

ومن الطبيعي أن يكون بين الأمم نوعٌ من التنافس والتدافع يسمح بالتعايش عن طريق الدفع بالتي هي أحسن وتحريك الآخر من موقع العداوة والبغضاء إلى موقع الصديق المُعان، فالحق- مثلا- لن يقضي على الباطل جملة واحدة كما نرى في حالة الصراع، ولكنه سيظهر عليه ويغلبه عاجلا أم آجلا، وإن لم يقضِ عليه تمامًا، كالذي نراه في الغابات من صراع بأن يحاول القوي أن

يقضي على الضعيف إذا ما سنحت له أدنى فرصة كي تخلو له الساحة[١]وبذلك يعيث في الأرض فسادًا وحده دونما رقيب أو عقاب؛ وذلك هو الفارق بين سنة إلهية كونية، هي(التدافع) تحول دون فساد الأرض، ورغبة إنسانية أرضية جامحة، هي (الصراع) الذي يؤدي إلى إهلاك العالم ودماره عدة مرات لاسيما بعد استعمال السلاح النووي. وبناء عليه يخطئ من لا يفرق بين الصراع والدفع ويكون أشد خطأ من يعتقد أن الصراع ضروريٌّ لقيام المجتمعات والحضارات لاسيما أن وجود الصراع ليس ضروريًّا إذا قام المجتمع على سنن التدافع والتعاون والتحاب والتعايش، وهذه كلها من لوازم الإيمان ودواعيه؛ لأنَّ الله تعالى- خالق كل شيء- أقام الدنيا على قاعدة التنوع بين الثنائيات التي تقتضي التأمل والإيمان بأنها تتكامل لا تتصارع ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فالظلمات والنور شئيان، والذكر والأنثى شيئان، والليل والنهار شيئان، والحق والباطل شيئان، والإيمان والكفر شيئان، والسماء والأرض شيئان ... وكلها تتكامل فيما بينها وتتوازن وفق سنن الله وتقديره وليس بينها صراع، ولو تخيلنا الصراع بينهما فهل سيستقيم التوازن الكوني؟! هل ستستمر حياة رجل بامرأة؟![٢]

في واقع الأمر نجد أن صراع الحضارات سببه -في رأي من يدعون إليه- هو صراع الشعوب دينًا وثقافةً وحوائج أو مصالح مختلفة، وقد تظهر أعراض الصراع على مستوى الفرد، كما في الصراع النفسي داخل نفس

(١) ربما كان قانون الغاب أكثر إقامة للتوازن البيئي من قانون الإنسان فالأسد لا يأكل أسدا من بني جنسه ولا يأكل أيضا وهو شبعان وإذا أكل فلا يأخذ أكثر من حاجته، أما في غابات الدنيا فكما يقول القائل: وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضنا بعضا عيانا.

(٢) انظر للاستزادة: محمد هيشور: سنن القرآن الكريم في قيام الحضارات وسقوطها، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١/١٩٩٦، ص٥٩.

الإنسان بين (فجورها وتقواها) أو على مستوى الجماعة البشرية بين (الحق والباطل) أو على مستوى الطبقات بين الأغنياء والفقراء أو على مستوى المجتمعات والأنظمة كـ(البرجوازية والبروليتارية) أو الأنظمة السياسية الحاكمة كـ(الديمقراطية الليبرالية والشيوعيّة الشموليّة)، وقد يؤدي هذا الصراع في الغالب إلى نتائج غير محمودة العواقب وإن بدا صحيًّا لاستمرار حركة المجتمعات وتطور التاريخ. لاسيما بعد امتلاك الدول المتصارعة للأسلحة النووية التي قد تدمر العالم كلَّه عدة مرات.

ومن الواضح أن فكرة صراع الحضارات أو الأمم ليست جديدة على الفكر الغربي، إذا ما استدعينا نظائرها في المجتمع الأوربي الواحد حيث كان لدى كارل ماركس(ت١٨٨٣) نظرية صراع الطبقات بين البرجوازيين والبروليتاريين؛ إذ يعد الصراع بينها هو الذي يصنع التاريخ، فإن كان ذلك داخل المجتمع الواحد فلا غرو أن يفرز ذلك الفكر- إذا ساد- حالة خارجية من تجدد الصراع بين الأمم كلها، ويرى د. زكي الميلاد أن فرضية الصدام بين الحضارات نابعةٌ من الصراع، إذ يقول: "ولعل مبعث هذه الفرضية أنهم في الغرب يقرؤون التاريخ الإنساني من زاوية الصراع والنزاع والصدام على مستوى الحضارات والأمم والشعوب والدول، لا من زاوية التعايش والحوار"[(١)] وأضاف د. محمد عمارة إلى ذلك أن الداروينية نسبة إلى نظرية داروين في فلسفة النشوء والارتقاء قامت هي الأخرى على الصراع بين الأحياء، وأن البقاء فيها للأقوى ولا مكان فيها للضعيف، ويمكن القول بأن هاتين النظريتين(صراع الطبقات وصراع الأنواع) مبنيتان على فلسفة هيجل التي قامت على نسخ

(١) د. زكي الميلاد: المسألة الحضارية، كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير؟، المركز الثقافي العربي، مكتبة مؤمن قريش، الدار البيضاء، المغرب، ط١/١٩٩٩، ص ٤٦.

العصر الجديد للعصر القديم عبر الصراع مع مكوناته[١]، ولا نبالغ إذا قلنا إن فكرة الصراع متجذرة في الحضارة الغربية بل تعد أصلا أصيلا يعود إلى العصر اليوناني الذي أخذت عنه، ثم العصر الروماني اللذين سادت فيهما مفاهيم الصراع بدلالاتها المتعددة ومعانيها المتنوعة انطلاقًا مما كان يعرف في الفكر اليوناني القديم من عقيدة صراع الآلهة القائمة على تعدد الآلهة مما يؤدي إلى الصراع فيما بينها وصراع القوة والضعف، وصراع الخير والشر، وصراع الإنسان مع الطبيعة وصراع الإنسان مع الآلهة[٢].

ولا يخفي كذلك أن الصراع كان مستمرا في الغرب إلى عصر النهضة الأوربية الحديثة والتنوير حيث كان محوره الصراع بين رجال الدين والعلماء، وحُسِم هذا الصراع لصالح العلماء التجريبيين الذين انتصروا في معركة العلم والمدنية على كهنوت الكنيسة التي تعارض حقائق العلم وأسست لفكرة الدولة العلمانية التي أضحت تؤله العلم لاسيما في القرن التاسع عشر. ولم يتوقف الصراع عند ذلك الحد بل درات رحاه داخل الحضارة الغربية بين القوميات المتعددة والطوائف المختلفة، وهي الفترة التي مثلت حرب الطوائف في القرن الثامن عشر الميلادي حتى قيام الثورة الفرنسية١٧٨٩م، ولم يكن الصراع داخليا فحسب بل اتسع خارجيًّا ليشمل الشرق حيث استعمرتُه الحضارة الغربية واقتسمته بغرض الحصول على موارده الخام من الطاقة والبترول اللذين دفعا إلى التقدم المادي والتكنولوجي في الغرب بعد عصر الثورة الصناعية، واستمرت تلك الحروب حتى الحرب العالمية الأولى(١٩١٤-١٩١٨م) وأصبح

(١) انظر: د. محمد عمارة: الحضارات العالمية تدافع أم صراع، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١/ ١٩٩٨م، ص٧.

(٢) د. عبد العزيز التويجري: صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ط٢/٢٠١٥م، ص١٣.

الصراع بين الدول وغيرها يتمثل فيما تحمله تلك الدول من أيدولوجيات كالصراع بين الفاشية والنازية مع الشيوعية، ثم بين الشيوعية والرأسمالية إلى نهاية الحرب العالمية الثانية(١٩٣٩-١٩٤٥م)، وبعدها استمر الصراع فيما يعرف بالحرب الباردة بين قطبيّ العالم آنذاك بين دول أوروبا الشرقية ممثلة في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الغربية التي التفّتْ حول الولايات المتحدة الأمريكية لاسيما بعد أن أخذت بيد تلك الدول نحو الإعمار والتحديث بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك يعني أن فكرة الصراع قد مرّت في التاريخ بعدة مراحل مختلفة، حيث كانت قديمًا بين الآلهة ثم بين الملوك والأباطرة، ثم انتقلت إلى الشعوب من خلال الدولة القومية، ثم أصبحت بين الأيدولوجيات، ولكن بعد انتهاء الحرب الباردة سيكون الصراع الذي ينشب مع حلول النظام العالمي الجديد صراعًا بين الحضارات[١] ومن الملاحظ هنا أن التاريخ الغربي قائمٌ على الصراع أو هو الصراع ذاته القائم على الجدل بين الثنائيات، فإذا تغلب العلم على الدين انتهى تاريخ الكنيسة وإذا انتصرت البروليتارية على البرجوازية انتهى تاريخ الرأسمالية وبدأت الشيوعية وهكذا إلى القول أخيرا بنهاية التاريخ.

ومن المبالغة في القول الزعم بأن تلك المرحلة من صراع الحضارات بين القطبين(الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية) قد انتهت بما ألفه فوكوياما[٢] سنة ١٩٩٢م في كتابه "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" The end of"

(١) د. محمد أحمد عبد القادر: الفكر الإسلامي المعاصر الواقع والمأمول، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٩، ص٣٣٠.

(٢) فرانسيس فوكوياما: عالم اقتصاد وفيلسوف أمريكي من أصل ياباني، شغل منصب مدير التخطيط بوزارة الخارجية الأمريكية، وعمل أستاذ للاقتصاد في جامعة جون هوبكتر بمركز جون أولين بجامعة شيكاغو، وعمل في قسم العلوم السياسية بمؤسسة راند ولا يزال عضوا في مجلس أمنائها. ومن أشهر كتبه نهاية التاريخ وكان في أصله عبارة عن مقالة بنفس العنوان نشرها ١٩٨٩ بمجلة ناشيونال انترست الأمريكية ثم ترجمت إلى ثلاث عشرة لغة في كل أنحاء العالم.

the history and "The Last man التي استلهمها من الجدل بين الثنائيات(الفكر والواقع) عند هيجل حيث رأى أن فكرة الصراع البشري بين الحضارات عبر التاريخ قد انتهت للأبد ببلوغ الإنسانية مرحلة الرشد من خلال وصولها إلى محطة النظام الديمقراطي الليبرالي الغربي التي تمثل نهاية المطاف؛ وذلك بعد اندحار الاتحاد السوفييتي وزوال كل المنافسين، ويأتي مفهوم نهاية التاريخ حاملا معه – بزعمه– بشارة بسيادة القيم الليبرالية الغربية لكل العالم.[١] أي أن الحضارة الغربية هي النموذج الحضاري الأخير أو الكامل الذي انتصر على كل الأيدولوجيات ووضع حدًّا لتاريخ الصراع بينها، فالرأسمالية المنتصرة هي خاتمة النبؤة ونهاية المطاف، ومن ثم فعلي كل الأنظمة التكيف معها وتبنيها، وهي قادرة على تجديد نفسها، وتغيير أشكالها حتى لا تتحجر وتنهار كما حدث للاشتراكية[٢] كما أن الإنسان الأمريكي هو الإنسان الأخير أو الكامل أو "السوبرمان" كما تصوره الأفلام الغربية، الذي سيسيطر على العالم بعد زوال العدو السوفيتي١٩٨٩، وبذلك يتنبأ بانتهاء الصراع أو ما يسمى بالحرب الباردة بين القطبين، لتغزو الثقافة الأمريكية ونظامها الرأسمالي الليبرالي العالم كله عبر تيارات العولمة لتصبح النموذج الكامل والنهائي الذي صرع كل الأيدولوجيات كالفاشية والشيوعية، ويك أن كتابه هذا أمسى بمثابة وثيقة ملكية أمريكا وحدها للحضارة الإنسانية[٣]. ولا ريب أن في ذلك نزعة استعلاء

---

(١) محمد أحمد عبد القادر: الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق، ص ٣٢٥.

(٢) د. حسن حنفي: صراع الحضارات أم صراع الثقافات، نماذج متبادلة، مجلة الفكر العربي، مركز الإنماء القومي، لبنان، عدد١١٤، ١١٥، سنة ٢٠٠٠، ص٣٦.

(٣) لا مانع من حضارة إنسانية عادلة يتفيأ العالم ظلالها ويأنس الناس بأمنها، ولو كانت غير مسلمة ولكن النهاية التي أرادها فوكوياما للحضارة الغربية لم تكن كذلك وأكد عليه صمويل هنتنجتون في قوله بنظرية صدام الحضارات.

واستكبار وتغطرس وعدم اعتراف بالآخر من قبل فوكوياما حتى وإنْ استند إلى فكرة هيجل في تطلع البشرية إلى مجتمع ليبراليّ يمثل كمالاتها أو النهاية بأن يحقق الكفايات من الحاجات الأساسية لأفراده، وإن كان يراه ماركس في المجتمع الشيوعي الذي تسوده طبقة البروليتاريا الكادحة. فإن فكرته الأساس بأن المجتمعات البشرية قد وصلت إلى نهايتها عند المرحلة الديمقراطية الليبرالية التي بشر بها فوكوياما، ولا غرو فقد سادت ثقافة (موت الإله) كما زعم نيتشه وكذلك (موت المؤلف)، ونهاية الحداثة أو ما بعد الحداثة ونهاية الأيدلوجيا وغيرها من نظريات النهايات(the Endisms)؛ كي يحيا – وحده– الإنسان الأمريكي المتضخمة ذاته، والذي تتعدد صفاته وقدراته "السوبرمان"، وعلى الرغم من ذلك فإن نهاية التاريخ تعني في الوقت ذاته (نهاية الإنسان= موت الإنسان) وانتصار الطبيعة أو المادة "أي الموضوع اللاإنساني على الذات الإنسانية، ومعناه تحول العالم بأسره إلى كيان خاضع للقوانين الواحدية المادية التي تجسدها الحضارة الغربية والتي لا تفرق بين الإنسان والأشياء والحيوان[١] والتي تحول العالم بأسره إلى مادة استعمالية، فنهاية التاريخ هي في واقع الأمر نهاية التاريخ الإنساني وبداية التاريخ الطبيعي"[٢]، ومن جانب آخر فنهاية التاريخ تشير من جانب آخر إلى مركزية الغرب باعتباره نموذجا حضاريًّا ناجحًا ومنتصرًا، وبذلك يكون الإنسان الغربيّ قد دخل في فردوسه الأرضي حسب نظرة فوكوياما، ولا نبالغ إذا قلنا إن كتابه "نهاية التاريخ" يعدّ بمثابة عقد ملكية واحتكار ومصادرة للحضارات الأخرى، وعدم الاعتراف بها، على الرغم

(١) وفي ضوء ذلك نفهم كيف يعتنى الأوروبيون بالقطط والكلاب ويعاملونها كالبشر من حيث الطعام المخصوص والمسكن والعلاج في الوقت الذي يعاني فيه غيرهم من الجفاف والجوع ناهيك عن قتل غيرهم بدم بارد.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري: في نهاية التاريخ وصراع الحضارات، مرجع سابق، ص٩٥.

من فتحه الباب أمام الحضارات الأخرى كي تستأنف تاريخها النضالي للوصول إلى النموذج الأمريكي الأوحد الذي يمثل الليبرالية الديمقراطية؛ وذلك قبل أن تضل الطريق، ويرسم صورة دراماتيكية ممثلة بالكلمات في نهاية كتابه، تعبر عن محور فكرته يقول فيها: "ويبدو لي – أخيرا– الجنس البشري كما لو كان قطارًا طويلًا من العربات الخشبية التي تجرها الجياد، متوجهًا إلى مدينة بعينها عبر طريق طويل في قلب الصحراء، بعض هذه العربات قد حددت وجهتها بدقة ووصلت إليها بأسرع وقت ممكن، والبعض الآخر تعرض لهجوم من الأوباش فضل الطريق، والبعض الثالثة أنهكته الرحلة الطويلة فقرر اختيار مكان وسط الصحراء للإقامة فيه وتنازل عن فكرة الوصول إلى المدينة بينما من ضلوا الطريق راحوا يبحثون عن طرق بديلة للوصول إلى المدينة، وفي النهاية يجد الجميع أنفسهم مجبرون على استعمال نفس الطريق– ولو عبر طرق فرعية مختلفة– للوصول إلى غايتهم، وفعلا تصل أغلبية هذه العربات إلى المدينة في النهاية، وهذه العربات عندما تصل لا تختلف عن بعضها إلا في شيء واحد وهو توقيت وصولها إلى المدينة، سرعة أو بطء وصولها إلى الديمقراطية الليبرالية... ومن ثم نهاية رحلتها الطويلة... نهاية التاريخ"[1] ولا ريب أن هذه الصورة لا تبتعد عن الأفلام الأمريكية القديمة لرعاة البقر، وإن كان بارعًا كبيرًا في وضع يده على منهج الحضارات في الوصول إلى غاياتها وهو المدينة أو الحضارة على ما بينهما من علاقة، ولكنها مدينة أمريكية بالطبع، ولا يخفى علينا الحضارات التي قطعت الطريق على غيرها(أو الأوباش حسب تعبيره) كما لا يخفي أيضا الحضارات ضلت الطريق، إنها نفس

(١) فوكوياما: نهاية التاريخ، ترجمة، حسين الشيخ، دار العلوم العربية، بيروت ط١/١٩٩٣م، ص ٢٧٨، ٢٧٩.

درجة الوضوح التي نعرف بها الحضارة المجبرة التي تفرض نفسها على غيرها.

ومن الإنصاف القول بإن نزعة الاستعلاء هذه متجذرة في الثقافة الغربية، وهي التي دعت فوكوياما إلى النظر إلى العالم على أنه عبارة عن صراع بين حضارات قديمة وحديثة، أي أن المجتمعات انتقلت من مجتمعات زراعية إلى صناعية إلى تكنولوجية حديثة، وأن الحضارة الغربية بلغت كمال النهاية، ومن ثم فهي مؤهلة لتأسيس نظام عالمي جديد وفقا لنظرية الغرب والباقي، فالغرب هو الأساس والباقي لا قيمة له يمثل دور الكومبارس في المسرح العالمي للبطولة الأمريكية على وجه التحديد.

وليست هذه النزعة خاصة بـــ"فوكوياما" فحسب بل درج عليها صمويل هنتنجتون وغيره من المؤرخين الغربيين؛ إذ يقسمون التاريخ إلى عصور: قديمة وحديثة. والحديثة هي المتعلقة بالغرب وحده باعتباره متنا والباقي هامشا على صفحته أو بل إن الجغرافيين حينما يقسمون العالم إلى: شرق وغرب، فالغرب أساس والشرق تابع أو المفكرين الوضعيين حينما يقسمون التاريخ إلى مراحل الدينية، والفلسفية، والعلمية، فالأخيرة تنفى غيرها من المراحل وتحكم عليها. بل العقول نفسها عقل سامي وآخر آري، والأخير أفضل من غيره، وكذلك يفعل الحداثيون الغربيون حينما يقسمون التاريخ إلى عصور حداثية بناءً على رؤيتهم للحداثة، بحيث تكون هي الأساس الذي نقسم التاريخ كله وفقا له ثلاثة أقسام: فالماضي يمثل عصر ما قبل الحداثة والحاضر يمثل عصر الحداثة والمستقبل هو عصر ما بعد الحداثة، وهذا ما فعله حتى أصحاب النظريات الاجتماعية، فكارل ماركس قسم العالم وفقا لفكرته الاستعلائية بالطبع عن الشيوع إلى ثلاث طبقات: الشيوع، وهي الأعلى والبروليتارية التي يجب أن تحكم، والرأسماليين هي الأدنى. وما زالت تلك الأفكار العنصرية قائمة إذ يكفى

أن نعلم أن الرئيس الحالي "دونالد ترامب" يصف بعض الدول الإفريقية التي يقدم منها عدد من المهاجرين بأنها حثالة ثم يقول إنها ليست عنصرية وأنا لست عنصريا.(١)

وصفوة القول إن هذا الصراع المحتدم قد مهد الطريق لميلاد عهد جديد من الصراع أو خلق حالة من الصراع مع عدو جديد أشيع عنه أنه يريد أن يناوئ حضارة القطب الواحد، بل هو العدو الجديد الذي يتوقع أن يكون خلفا للدب أو القطب الروسي في الصراع، وكأن الحضارة الغربية تحاول جاهدة أن تبقى على حالة الصراع وكأنه أمر حتمي لا مفر منه، وكلما سقط طرف قام الآخر(٢)، وترى أن استمرارها في الحضارة يكمن في الصراع مع الآخر، وهذا بلا ريب يؤدي إلى صعوبات كبيرة في الحوار، ويتضح هذا الموقف من كتاب "صدام الحضارات" الذي ألفه هنتنجتون وأحدث به جدلا كبيرا في الأوساط

(١) تناقلت الصحف الصادرة يوم ١٥ يناير ٢٠١٨، هذا الخبر، مثل: القدس العربي، جريدة الاتحاد، جريدة الرأي وغيرها من الصحف العالمية حيث أدان مجموعة السفراء الأفارقة ٥٤ دولة في بيان يدين التصريحات الفاضحة والعنصرية والمتضمنة كراهية للأجانب من جانب دونالد ترامب.

(٢) يقول نعوم تشومسكي في كتابه (السيطرة على الإعلام) عن هذه النظرية: "وفي مثل هذه الظروف عليك أن تشتت القطيع الضال، وربما أن مشاهدتهم لمباريات الدوري والمسلسلات القصيرة ليست بالأمر الكافي، عندئذ لابد من إخافتهم من الأعداء، ففي الثلاثينيات أخافهم هتلر من اليهود والغجر، فعليك أن تحطمهم لتدافع عن نفسك... فقبل منتصف الثمانينيات كان بإمكانك أن تستخدم إسطوانة الروس قادمون وتلومهم على أي شيء بدون أي مجهود وأنت نائم، ولكنه خسر تلك وكان حتما عليه أن يأتي بأخرى جديدة، ومثلما فعل جهاز ريجان للعلاقات العامة في الثمانينيات فأصبح الإرهاب العالمي وتهريب المخدرات والمجانين والعرب وصدام حسين أو هتلر الجديد الذي سيغزو العالم كان عليهم لزاما الإتيان بالواحد تلو الآخر لإخافة الناس وإرهابهم حتى يعيشوا في ذعر" تعريب، أميمة عبد اللطيف، مكتبة الشروق الدولية، ط١/٢٠٠٣م، ص ٢٣، ٢٤.

السياسية والثقافية في العالم. وسنفصل القول في ذلك بعد قليل، وتأسيسا على ذلك فنهاية التاريخ عند فوكوياما تعني بداية عصر جديد انتهت فيه حالة الصراع والاستقطاب مع الاتحاد السوفييتي ليدور العالم في فلك المركزية الأمريكية كما تدور الكواكب حول المجموعة الشمسية. وكان من آثار صراع الحضارات محاولة القضاء على الثقافات الوطنية واللغات المحلية باسم التثاقف أو المثاقفة وتعني في الظاهر التحديث والتمدن والتفاعل الثقافي والحوار المتبادل والأخذ والعطاء وفي الحقيقة هي تعني التغريب، وانتشار ثقافة المركز على ثقافة الأطراف.(١)

وخلاصة الأمر إنه من الملاحظ أن الصراع بين الدول قد تطور من كونه صراعا ومواجهة حقيقية على أرض الواقع تمثلت في حروب عالمية مدمرة إلى أن صار حربا للأفكار والأيدولوجيات فترة الحرب الباردة ثم من المتوقع له أن يصبح صراعا وصداما بين الحضارات المختلفة متجاوزا إطار الدول والأيدولوجيات التي كانت تحميها كما في حالة صدام الحضارات التي يرى أنها تسعى إلى عزل الحضارات عن أصولها الدينية والأخلاقية لتصبح طيعة لهيمنة الحضارة الغربية المعاصرة وتذوب ثقافيا ومعرفيا فيها، وذلك ما نعرض له على النحو الآتي:

(١) انظر: د. حسن حنفي: صراع الحضارات أم صراع الثقافات، مرجع سابق، ص٣٩.

المبحث الثاني

مسيرة الحوار من الصراع إلى الصدام

يطيب لي أن أتناول هذا المبحث في عدد من النقاط الآتية:

أولا: الصدام الحضاري (الحرب العالمية الثالثة والحرب على الإرهاب):

الصَّدْمُ: ضَرْبُ الشيء الصُّلْب بشيء مثله. وصَدَمَه صَدْماً: ضَرَبه بجسده. وصَدَمَهُم أَمْرٌ: أصابهم. قال الأزهري: واصطِدامُ السفينتين إذا ضربتْ كلُّ واحدة صاحِبَتَها إذا مَرَّتا فوق الماء بحَمْوَتِهما[١] فالصدام the clash كالصراع conflictthe في كونه بين طرفين متعارضين إلا أن اجتماعهما ممكن، وهذا المفهوم أبرز ما يميز الصدام عن الصراع الذي لا يمكن فيه الاجتماع أو التعددية، في حين أنه من الممكن أيضا السيطرة علي الصدام أما الصراع فلا يمكن السيطرة عليه.[٢]

ولم يكن ثمة غرابة أن كتاب "نهاية التاريخ" قد أحدث ضجة فكرية هائلة في الأوساط الثقافية الغربية والعربية نقدًا ونقضًا ورفضًا؛ إذ استدعى من أستاذه صامويل هنتنجتونSamuel Huntington [٣] أن يكتب مقالة مهمة[٤] بعنوان

---

(١) انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، مرجع سابق، ص٣٣٤.

(٢) انظر: قيس ناصر راهي: صدام الحضارات دراسة نقدية في جالينوم المفهوم، العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ط١/٢٠١٧م، ص٢٢.

(٣) ولد صامويل فليبس هنتنجتون سنة (١٩٢٧)- وهو مفكر استراتيجي يهودي الديانة أمريكي الجنسية من المقربين من دوائر صنع القرار بالإدارة الأمريكية بل كان مسئولا عن التخطيط الاستراتيجي بمجلس الأمن القومي في إدارة الرئيس جيمي كارتر، وأستاذا بجامعة هارفارد إلى أن توفى ديسمبر٢٠٠٨ – نشر هذا المقال بمجلة الشئون الخارجية الأمريكية بعنوان The Clash Of Civilizatoin سنة ١٩٩٣م، مجلد٧٢، عدد٣. انظر: د. محمد عمارة: الحضارات العالمية تدافع أم صراع، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١/ ١٩٩٨م، ص٢٢.

(٤) تأتي هذه المقالة بعد فترة وجيزة من سقوط الاتحاد السوفيتي ١٩٩٠م، وحسم معركة الحرب الباردة بين النظامين: الشيوعي الشمولي الشرقي، والنظام الرأسمالي الليبرالي=

صدام الحضاراتThe Clash of civilizationفي صحيفة الشئون الخارجية الأمريكية(foreign affairs) في صيف عام ١٩٩٣ وطوّرها إلى كتاب نشره بعنوان "صدام الحضارات" في سنة ١٩٩٦م يثبت فيه أن هناك حضارات أخرى ستبعث من جديد ولكنها ستلعب دورًا صداميًّا مع الحضارة الغربية لاسيما الحضارتان الإسلامية والصينية، أي أن الصراعات الأيدولوجية والثقافية قد انتهت فعلا بسقوط الاتحاد السوفيتي وتحولت إلى صراع العقائد التي تعبر عنها الحضارة الإسلامية والصينية معا، ولا ريب أن هذا الطرح معارض لما قدمه فوكوياما من انتهاء الصراع بسقوط الاتحاد السوفيتي وانفراد التجربة الليبرالية بعد انتهاء تاريخ الصراع.

ولم يعد يخفي على عاقل أنه في الوقت الذي تحاول الحضارة الإسلامية أن تنهض من كبوتها يُراد لها كَرْها أن تدخل في صراع مفتعل بل مفروض من الطرف الأقوى باعتبار أن الإسلام هو العدو التاريخي للحضارة الغربية من جهة، ومن جهة أخرى فإن المسلمين لديهم رغبة قوية وسريعة في النهوض والإصلاح ولعل بشائر الصحوة الإسلامية كانت واضحة، ومن ثم تعد محاولة النهوض والإحياء المحتملة جديرة بالفتك بالحضارة الغربية، وهنا رأى هنتنجتون أنها العدو القادم لا محالة لا سيما بعد أن خلتْ الساحة من القوى الاشتراكية الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفييتي، وباتت الحضارة الغربية وحدها على الساحة.

ولقى كتاب هنتنجتون رواجا كبيرا وفقا للهوى الإعلامي والسياسي الذي سيطر على صناع القرار في ذلك الوقت، لاسيما إذا علمنا أن فكرة صدام

=الغربي لصالح الأخير. وعبر عن ذلك المفكر الياباني الأصل الأمريكي الجنسية فوكاياما بأن ذلك هو نهاية التاريخ بانتصار الغرب على الشرق، وأنه لم يعد في العالم سوى القطب الواحد الذي سيحكمه وفق نظرته المادية الرأسمالية الليبرالية.

الحضارة قد سُبق إليها من قبل، حيث أشار إليها المستشرق الإنجليزي أرنولد توينبي في كتابه "الحضارة في الميزان" إذ ورد فيه أن من أهم الحوادث التي سيهتم بها مؤرخو المستقبل هي مسألة صدام الحضارات يقول: "إن مؤرخي المستقبل سيقولون إن الحادثة الكبرى في القرن العشرين هي اصطدام الحضارة الغربية بسائر المجتمعات الأخرى القائمة في العالم إبان ذلك العصر، وسيقولون عن هذا الصدام أنه بلغ من القوة والشمول بحيث أدى إلى قلب حياة ضحاياه رأسا على عقب وبطنا لظهر، وأثر بشدة في سلوكهم وآرائهم ومشاعرهم وعقائدهم رجالا ونساء وأطفالا من أوتار الروح ما لا تحسه القوى المادية الخارجية وحدهما مهما بلغ من شدتها وهولها"[١] والحق لم يكن توينبي وحده هو الذي استعمل هذه المصطلح بل يفخر "برنارد لويس" بأنه أول من استعمل هذا المصطلح سنة ١٩٥٧م، وذلك بعد أزمة تأميم قناة السويس بمصر والعدوان الثلاثي عليها؛ إذ يقول في مقدمة كتابه "في الإسلام" سنة ٢٠٠٥: "باستطاعتنا أن نفهم جيدا مشاعر الاستياء والحقد اللذين هيمنا على شعوب الشرق الأوسط، وفي هذه الأيام إذا اعتبرنا أن التوتر القائم الآن ليس ناجما عن صراع بين دول أممن وإنما هو نتيجة لصدام بين حضارتين... لقد بذلت قصاري جهدي من أجل تقديم شكل الشرق الأوسط باعتباره ليس مجرد صراع بين الدول، بل هو بالأحرى صدام بين الحضارات"[٢] ولم يكن في ذهن لويس حينذاك غير الصدام بين حضارتين فقط هما: الحضارة الإسلامية التي ينابذها العداء والحضارة

(١) آرنولد توينبي: الحضارة في الميزان، ترجمة أمين محمود الشريف، مراجعة، محمد بدران، سلسلة آفاق ثقافية، عدد٣٤، القاهرة، ط٢/٢٠٠٦، ص٢٤٩.

(٢) عبد الرزاق الدواي: الخطاب عن حرب الثقافات في الفكر الغربي، عن حرب الثقافات حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة، المركز العربي للسياسات، الدوحة، ط١/٢٠١٣، ص١٢٤.

الغربية، وهو ما وجد بوضوح تام عند هنتنجتون وأضاف إليها الحضارة الكونفوشية.

وقد اعترف هنتنجتون بنفسه في الفصل العاشر من كتابه "صدام الحضارات" بأن مفهوم صراع الحضارات مأخوذ من المفكر المغربي المهدي المنجرة إذ يقول: "العلامة المغربي المهدي المنجرة أطلق على حرب الخليج بأنها الحرب الحضارية الأولى، وهي في الحقيقة – في رأي صامويل- الحرب الحضارية الثانية، الأولى كانت الحرب الأفغانية السوفيتية ١٩٧٩-١٩٨٩ فكلا الحربين بدأت بغزو دولة لدولة أخرى، ولكنها تحولت بشكل واسع، وأعيد تحديدها كحرب حضارات"[١] وقد تعرض المنجرة لتلك الفكرة في كتابه الحرب الحضارية الأولى إذ قال: "فالحرب القادمة هي حرب ثقافات وحضارات بين الشمال والجنوب".[٢]

وتجسدت نظرة "هنتنجتون" البائسة المتشائمة عن صدام بين الحضارات بعكس نظرة "فوكوياما" المتفائلة بانتصار الحضارة الغربية وحدها، على الرغم من أن العالم – ولا يزال – تتمركز فيه حضارة واحدة فقط هي الحضارة الغربية ذات الوجه العولمي الأمريكي التي ينتمي إليها والتي تتحكم في توجيه السياسة العالمية عبر تيارات العولمة، وقد حمل على عاتقه التخطيط الاستراتيجي لها، وليته كان متوهما للصدام فحسب كما لو أحسنا الظن به،

(١) صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات، مرجع سابق، ص٣٩٩.

(٢) المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى، مكتبة الشروق، ط١/١٩٩٥، ص١٤. ويقول أيضا: «وأعود إلى حرب الخليج لأقول أن ما حدث في حرب الخليج ليس حربا محلية ولا حربا بين عرب، بل هو انطلاق لأول حرب عالمية حضارية بدأت حلقته الأولى في الخليج» ص١٠٨.

ولكنه كان يستدعي تاريخا من صراع الغرب مع الحضارة الإسلامية[1] منذ الحروب الصليبية وترسباتها في الذهنية الغربية من جهة، وهي – في ذات الوقت – الحضارة التي تسعى للنهوض بعد الصحوة، وبات يُخشى بأْسُها في المستقبل، حيث رأى أن من دواعي استمرار الحضارة الغربية أن يكون لها عدو منافس يُحشد الناس (أو الأمريكيين) من أجل مواجهته، فالمواطن الأمريكي لا يعرف هويته(الآنا) إلا بنفي الآخر، كما نفي الأمريكان الهنود الحمر وكما نفى البيض للسود الأفارقة، وهكذا مع أن الآخر هو المرآة التي ينعكس عليها الأنا، فإن زال العدو السوفيتي فلا معنى لوجود المواطن الأمريكي، الأمر الذي اقتضى بدء البحث عن عدو جديد يستمدون من عداوته وحدة أهدافهم وأممهم المتحدة، وليس هناك – من وجهة نظره البائسة – سوى الحضارة الإسلامية التي ينتشر دينها– وما يزال – بين الغربيين والشرقيين على السواء لا سيما بين الشباب الغربي على الرغم من ضعفها الحالي وهوانها المادي فضلا عن أن دينها وثقافتها يحضان على وجوب نشرها باعتبارها دعوة ورسالة عالمية، ثم يأتي دور الحضارة الصينية الكونفوشية كذلك باعتبارها القوى الاقتصادية الناهضة التي باتت تنافس منتجاتها في الأسواق العالمية لاسيما العربية منها، فهاتان الحضارتان (الإسلامية والصينية) تستعصيان على الذوبان وتحافظان على هويتيهما على الرغم من أنهما تأخذان بأدوات التحديث والتطوير، ومن هنا يولد الصراع والعداء من وجهة نظر الغرب كما عبر عنه هنتنجتون الذي أراد أن يخضع كل حضارات العالم تحت سلطان ووصاية الحضارة الغربية الأمريكية كي تنهج ثقافتها وهويتها وحضارتها باعتبارها النموذج الأعلى الذي يجب أن يتبع، فضلا عن زيادة عدد السكان من أصحاب هاتين الحضارتين؛ مما قد يؤثر على ميزان القوى العالمية في الوقت الذي تقل فيها أعدد السكان

(١) انظر: صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات، مرجع سابق، ص٤٢٦.

في الحضارة الغربية نتيجة افتقاد قيمة الأسرة والزواج بعد تقنين أوضاع المثلية الجنسية والشذوذ والإباحية باعتبارها قيما بديلة.

وحاول هنتنجتون متوهما أن يشير في كتابه إلى أن الحضارة ليست واحدة وأن هناك حضارات أخرى يمكن أن تناوئ الحضارة الغربية ولا تسلم بسيادتها، ومن هنا توقع حالة من صدام الحضارات التي تنبأ فيها بأن الصدام سيتحول من كونه يدور حول مصالح اقتصادية أو أيدولوجية إلى صراع ذي طابع ثقافي حضاري سيقع بين الحضارة الغربية ذات المنظومة الأخلاقية والقيمية والثقافية المختلفة من جهة وبين عدوها المحتمل يقصد بذلك الحضارة الإسلامية من جهة أخرى، وبذلك مهد الأجواء الاستباقية للصدام.

لما وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ -التي شهدها العالم كله عبر الفيديو الذي صور الحدث وقت وقوعه! - ثَبُت صدق هنتنجتون وتحولت وجهة نظره المحتملة إلى نظرية واقعية نجحت على مستوى البعد الاستراتيجي التطبيقي؛ إذ أعلن جورج بوش الابن – رئيس الولايات المتحدة آنذاك- أن العالم قبل تفجير أيلول الأسود غير العالم بعده، وكان يقف من خلفه المحافظون الجدد الذين يمثلون اليمين الديني المتطرف، وأعلن بوش الابن حينذاك أنها حرب صليبية على الإرهاب، ولم يكن هنالك متهم غير الإسلام وأهله من العرب، واتخذت إجراءات أمنية مشددة ضد المسلمين سواء المغتربين منهم أو المهاجرين الجدد. وبدأت الحملة العسكرية على ما أسموه منابع الإرهاب فبدأت الحرب الأمريكية بمساعدة أوربية إنجليزية وفرنسية وألمانية ... على أفغانستان للقضاء على نظام طالبان الحاكم فيها وحليفه المسمى بتنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن وفرض نظام حكم جديد موالٍ للغرب، ثم بدأت الأنظار تتجه نحو ضرب العراق والصومال بحجة أنهما من الدول التي ترعى الإرهاب ولا مانع من تهديد كل من إيران وليبيا ولبنان واليمن وكل من تُسوّل

له نفسه من الدول الإسلامية أن يعلن موقفا رافضا لهذه الهجمة البربرية الأمريكية على البلاد الإسلامية[١]،ومن ثم كان سائغا أن يخاف الغرب من الإسلام، وأن يصبح المسلمون إرهابيين وتظهر موجة إعلامية ضخمة عن مكافحة الإرهاب(=الإسلام)، ولا يعدو أن يكون الإرهاب المقصود هو الإسلام في صورة المسلمين سواء في الشرق أو الأقليات المسلمة في الغرب. وذلك على الرغم من دعم محاولة المفكر الفرنسي رجاء جارودي والرئيس الإيراني الأسبق محمد خاتمي إلى الدعوة إلى حوار الحضارة بدلا من صدامها وتحويلها إلى عمل مؤسسي منظم حيث اعتبرت الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ٢٠٠١ هو عام حوار الحضارات.[٢]

---

(١) انظر: د. مصطفى النشار: ما بعد العولمة قراءة في مستقبل التفاعل الحضاري وموقعنا منه، دار قباء، ط١/٢٠٠٣م، ص١٠٤.

(٢) وكأن الجمعية العامة للأمم المتحدة أردت أن تستبشر خيرا بأن تفتتح القرن الحادي والعشرين بالحوار بين الحضارات بعد أن شهد القرن العشرين حروبا عالمية بدأت بالحرب العالمية الأولى ١٩١٤، والحرب العالمية الثانية قرب أوسطه ١٩٤٥ وحرب الخليج الثانية قرب نهايته ١٩٩٠. فجاءت نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين باتخاذ الأمم المتحدة قرارا بتاريخ ١ نوفمبر١٩٩٨ بإعلانها عام٢٠٠١ هو عام حوار الحضارات، وتم مناقشة التقرير الذي كلف به "كوفي عنان" مجموعة من العلماء من ١٧ دولة وناقشوا تقريرا الاجتماع يوم ٧، ٨/نوفمبر٢٠٠١ وخلصوا منه بقرار بإعداد جدول أعمال كوكبي من أجل الحوار بين الحضارات. ويؤكد ذلك ما جاء في حوار إيكيدا المفكر الياباني إذ يقول: "فإن الجمعية العامة للأمم المتحدة حددت سنة ٢٠٠١ باعتبارها سنة الحوار بين الحضارات، كما قررت أن تعتبر أن العقد الممتد من سنة ٢٠٠١ حتى سنة ٢٠١٠ هو العقد الدولي لثقافة السلام وعدم العنف تجاه الأطفال في العالم، يبدو أن المجتمع الدولي يتطلع بشوف إلى التخلي عن استمرار العنف والدمار الذي ابتلي به هذا القرن وإلى خلق ثقافة جديدة للسلام وعدم العنف في القرن القادم" الحضارة العالمية حوار إسلامي بوذي، ص١٤٣.

وبناء على أحداث سبتمبر ٢٠٠١ دخلت الحضارة الغربية في صدام مباشر مع الحضارة الإسلامية وكأن تلك الأحداث قد قضت تماما على ذلك الحوار الذي دب قبلها من خلال بعض المبادرات كمبادرة الفاتيكان في عام ١٩٦٢ لتحديد العلاقات بين المسيحية والأديان الأخرى، ومن بينها العلاقات الدينية بين المسيحيين والمسلمين وقد صاحبتها جهود سياسية لتحسين العلاقات الإسلامية على الرغم من توترها على المستوى الاقتصادي بسبب العولمة ونظام السوق الحر وغيرها من الأمور التي تعد امتدادا لعصر الاستعمار القديم، فضلا عن الانعكاسات الثقافية للعولمة وتأثيرها على الهوية الثقافية الإسلامية ووضعها على المحك في مواجهة الثقافة الغربية، كل ذلك أدى إلى أزمة التأرجح بين الحوار والمواجهة في علاقة العالم الإسلامي مع الغرب.[١]

لا شك أن هذا الكتاب "صدام الحضارات" يصب ضمن ما عرف بإشكالية الإسلاموفوبيا والتخويف من الإسلام وتقديمه المسلمين في ثوب الإرهابيين واختزالهم مرة في صورة طالبان بأفغانستان وأخرى في القاعدة بالعراق وثالثة في سوريا باسم داعش حاليا. ولم تعوز الآلة الإعلامية الغربية الضخمة أن تجد مثالب للمسلمين من خلال إعادة ترسيخ الصورة السلبية للإسلام التي بُنِيتْ من خلال التراث الاستشراقي الحاقد على أهله، ومن ذلك ما ذكره الرئيس الأمريكي السابق نيكسون – الذي يعد من كبار المفكرين وتعتبر كتاباته من الكتب الاستراتيجية المهمة؛ إذ يقول بصراحة ووضوح، في كتابه "الفرصة السانحة" أو "انتهزوا الفرصة: "أن العدو الأول هو الإسلام الذي يسميه بالأصولية الإسلامية. ثم يشرح الأصولية الإسلامية ويعرفها بالنظرية التي تدعو إلى استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، وتطبيق الشريعة الإسلامية، والتي تنادي بأن الإسلام دين ودولة، والتي تعتبر ماضي المسلمين مصدر هداية

(١) د. محمد خليفة حسن أحمد: الحوار منهجا وثقافة، مرجع سابق، ص١٢٩، ١٣٠.

لمستقبلهم. وتحقيقاً لهدف محاربة الأصولية الإسلامية دعا الرئيس "نيكسون" إلى تحالف جديد يضم الولايات المتحدة، وأوروبا، وروسيا ليتمكن هذا التحالف الجديد لمواجهة البعث الإسلامي الجديد، والعمل على فرض نمط علماني على العالم الإسلامي، نمط يقلد أتاتورك الذي وضع نموذجاً علمانياً منحازاً نحو الغرب وساعياً إلى ربط المسلمين بالغرب سياسياً واقتصادياً"[١] من الواضح أن أسلوبه دبلوماسي لطيف يتفق مع كل ما صرح به المفكر اليهودي صمويل هنتنجتون في عبارة صريحة. ورأت رئيسة وزراء إنجلترا "مارجريت تاتشر" حين سقطت الكتلة الشرقية: "الآن انتهى الغرب من العدو التاريخي وبقى العدو الأزلي" وحين سئلت إبان حرب الخليج في بداية التسعينات عن العدو الأزلي لم تكن في حاجة لهز الكتف، وهي تردد الإسلام طبعا[٢].

تمثل نظرية صدام الحضارات محاولة لوأد أي انبعاث حضاري في العالم غير الغربي ليبقى الغرب وحده هو الحضاري المتفوق وغيره هو المتخلف؛ لأنهم قسموا العالم إلى وفقا للمقولة The West and the Rest أي الغرب وحده في قسم وباقي العالم قسم آخر تابع له، وهو المعنى المقابل للشعار الذي اتخذوه لدفع الدول على المشاركة معهم في مواجهة الإرهاب "من ليس معنا فهو صدنا"، ومفهوم الإرهاب هنا ليس مستقرا أو واضحا على الرغم من المؤتمرات التي حاولت تحديده لأن تعريفه ومفهومه يحتكره من يملك القوة فحسب.

---

(١) د. محمود غازي: أهمية حوار الحضارات في تحقيق السلام العالمي، مرجع سابق، ص٤٢٤.

(٢) مصطفى عبد الغني: حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية مركز الثقافة العربية ٢٠٠١، ص٣٧. نقلا عن المكون المعرفي ودوره في توجيه الحضارات، ص٤٣.

إنه لأمر عجاب أن تكون الحضارة الإسلامية هي التي سيكون الصدام بينها وبين الحضارة الغربية، وتشتد الغرابة إذا جمع بين الحضارة الإسلامية من جهة والصينية من جهة أخرى فما وجه الربط بينما، أهي الأخلاق؟ وهل الحضارة الإسلامية مازالت قائمة حتى يكون الصدام؟ وماذا كان يعني صامويل؟ لاريب أن الدول الإسلامية القائمة لا يجمعها نظام سياسي واحد كما هو الحال في الحضارة الغربية الرأسمالية الليبرالية، ولا بينهما تعاون اقتصادي أو اتحاد على غرار الاتحاد الأوربي، وليس لها سياسية تعليمية واحدة أو منبر إعلامي موحد على الرغم من أواصر كثيرة تجمعها من التاريخ والدين واللغة والوطن والنسب وغيرها، وقد سقطت أو بالأحرى أسقطت آخر رايات الوحدة بين المسلمين سنة ١٩٢٤م. فما الذي يخشاه هنتنجتون من بقايا حضارة تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد؟! إنه يخشى محاولة عودتها ونهضتها فيما يسمى بـــ"الصحوة الإسلامية" التي تلوح في الأفق بين حين وآخر، وليس الربيع العربي عنا ببعيد كما أن انتكاسته وتحوله إلى خريف دام ليست ببعيد عنهم أيضا. وبناء عليه "نستطيع أن نقول إنه ليس هنالك في واقع الأمر صراع بين حضارة غربية وأخرى إسلامية؛ لأنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية بالمعنى الذي توجد به حضارة غربية أو بالمعنى الذي كانت توجد به حضارة إسلامية"[1] أي أن تكون هناك أنساق فكرية وفلسفية وإبداعية فضلا عن إنتاج المعرفة على المستويين الإنساني والعالمي، فكل ما هنالك أن ثمة محاولة لبعث نمط ثقافي مستلهم من الحضارة الإسلامية قديما، وذلك كنوع من المقاومة للفكر الغربي الوافد حديثا عن طريق الاحتماء بالذاكرة الجماعية للثقافة الإسلامية بإحياء ذلك الموروث، ومن ثم فليس هناك ما يسمى بصدام حضارات لأن العرب لا ينتجون وسائل الحضارة الإنسانية الحديثة ولا علومها ولا ثقافتها

(١) د. جعفر آل إدريس: صراع الحضارات، مرجع سابق، ص ٤٥.

فمازال المسلمون يبحثون عن مشروع حضاري جديد، وإنما وقع- يقصد هنتنجتون- في خلط صدام الحضارات لأن بعضهم لا يفرق بين الثقافة والحضارة.(١)

وكان من المفترض أن تكون العلاقة بين الحضارة الإسلامية والغربية علاقة حوار لاسيما وأن هنتنجتون يرى أن الدين مكون مهم من مكونات الحضارة، أما الكونفوشيوسية فليس لها دين إلهي، ولكنه رأي أن هناك تعاونا اقتصاديا بينهما سعيا في اكتساب الثروة والقوة، فالصين يمكن أن تبيع السلاح إلى المسلمين، ولا غرو فقد غزت العالم كله بمنتجاتها.

ثانيا: الصدام الحقيقي والصدام الموهوم:

ومن الواضح أن الهجوم السياسي والديني وفقا لنظرية صدام الحضارات قد تركز على الإسلام كله باعتباره دينا إرهابيّا دون أن يكون الاتهام موجهًا إلى مذهب معين أو جماعة إسلامية معينة أو فكر إسلامي معين، فالإسلام كلّه كدين وحضارة – دون غيره من الأديان والحضارات- متهمٌ لديهم بالإرهاب والدموية، وليس لنظرية صدام الحضارات دور سياسيّ بارز في التعامل مع الصين فلا توجد اعتداءات ضد الصين ولا توجد ممارسات واضحة ومكشوفة ضد الحضارة الصينية على المستويات السياسية والثقافية(٢)، فالنظرية تطبق مع المسلمين فقط كسياسات استراتيجية وخارجية للغرب ضد المسلمين وليست مجرد أفكار نظرية كما كان الأمر مع الصين. ويفسر ذلك د. عمارة بأن الصراع بين الإسلام والغرب يمتد أكثر من ذلك حيث يستند إلى مقولة القائد

(١) انظر: عبد الرزاق الدواي: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، مرجع سابق، ص١٣٨.

(٢) د. محمد خليفة حسن أحمد: الحوار منهجا وثقافة، مرجع سابق، ص١٥٢.

العسكري الإنجليزي "جالوب باشا" التي تؤسس للصراع منذ بداية ظهور الإسلام إذ قال: إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط يعود إلى القرن السابع للميلاد، وهذا يفسر لنا لماذا عمد صامويل إلى خلق الصراع أولا مع الحضارة الإسلامية دون الكونفوشية، وأنه لم يكن متوهما بالقدر الذي كان يستدعي فيه تاريخ الصراع بين الإسلام والصليبية.

وتلك – في رأيي– هي الحرب العالمية الثالثة التي دارت رحاها في العالم الثالث بين الشرق والغرب، ولكنها حرب بالوكالة بين الدول العظمى وحلفائها روسيا من جهة وأمريكا وحلفائها من جهة أخرى وأظن أن الصورة واضحة تماما مع النموذج السوري الحالي، فإن عارض البعض هذه التسمية – الحرب العالمية الثالثة[1] – فلماذا نقبل بتسمية الحرب الباردة؟ فإن لم تكن هناك حروب في تلك الفترة الباردة ودعوناها حربا فكيف وقد دمرت دول بأكملها كأفغانستان والعراق وسوريا مع هبات طلائع الثورات العربية؟تحت ما يسمى بالإرهاب على الدولة الإسلامية المزروعة والمزعومة داعش.

وليس من قبيل المصادفة أن تكون العراق وسوريا هي البلاد التي احتضنت قديما ما يسمي بحضارة بلاد الرافدين–وهي من أقدم الحضارات التي عرفها العالم –لا سيما أن الحضارة الأوروبية الحديثة هي التي كانت تنقِّب عن آثار تلك الحضارات، سواء كان ذلك في بلاد العراق والشام أو في مصر،

(١) نشير إلى العقد الثاني من الألفية الثالثة بالحرب العالمية، وقد سبقني الأستاذ السيد ياسين إلى تسمية أحد كتبه بـــ"الحرب الكونية الثالثة، عاصفة سبتمبر والسلام العالمي" (نشر بالقاهرة، دار ميريت٢٠٠٣).وإن كان يشير فيه إلى ما حدث في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين بعد أحداث أيلول الأسود، وقدم رؤية متكاملة للحدث وتأثيره على العلاقات الدولية بين الشرق والغرب. ولا غرو في ذلك فقد رفع الغرب بعد تلك الأحداث شعار الحرب العادلة؛ لأن الدول الإسلامية تمثل تهديدا للعالم.

وكيف أن نابليون استصحب معه ١٥٢ عالما ومسئولا وباحثا في حملته الاستعمارية على مصر سنة ١٧٩٨مللكشف عن الآثار المصرية وقصة انتقال الآثار المصرية لاسيما حجر رشيد إلى فرنسا معروفة.

ثالثا: نقد نظرية صدام الحضارات:

صُنِف العالم في عصر النهضة إلى: شرق وغرب، ونشأ بينهما بعد ذلك في سياق النظام العالمي الجديد ما سموه بالشرق الأوسط الجديد، ولما تحقق الثراء بعد الثورة الصناعية الهائلة أصبح العالم يصنف مرة ثانية بحسب الوفرة الاقتصادية والإنتاج لتدخل دول في العالم الأول، وهي الدول الرأسمالية صاحبة المصنع إن جاز التعبير، ودول أخرى تدخل في العالم الثاني دول الاتحاد السوفييتي السابق، وهم الذين حاولوا بناء الدولة الشيوعية، ودول نامية هي دول العالم الثالث، ولما زاد الثراء عن ذي قبل ودخل العالم الأول في الثورة التكنولوجية أصبح الحديث عن تصنيف جديد(١)، ولكنه ليس مبنيا على اقتصاد الدول هذه المرة؛ لأن أغلب الدول قد أخذت بالتحديث والتمدين، وقد أتى التحديث أُكُله تقريبا في كل أنحاء العالم سواء على سبيل الإنتاج أو الاستهلاك لاسيما بعد عصر العولمة وسقوط الاتحاد السوفيتي، حيث صار العالم محصورا سياسيا في الغرب والشرق الأوسط الجديد، ومن ثم ظهر تصنيف جديد هذه المرة وفقا للثقافات والحضارات كما رأينا لدى هنتنجتون، على الرغم من أن بعض الغربيين كان يستعمل الثقافة بدلا من الحضارة أو يمزج بينهما دونما تفريق، فأصبحت هنالك حضارات لها هُوية ثقافية خاصة هي التي ستحتل

(١) ذكر المهدي المنجرة في كتابه عولمة العولمة .. من أجل التنوع الحضاري- تقسيما آخر بحسب تراتبية السلطة في العالم: القوة العظمى الوحيدة، وفي المرتبة الثانية القوى الإقليمية المهمة، وفي المرتبة الثالثة القوى الإقليمية الثانوية، منشورات الزمن، الرباط، ط٢/٢٠١١م، ص١٠.

المنافسة العالمية -لاسيما في عصر ما بعد التكنولوجي- بحيث تدافع عن بقائها وتميزها المحلي، ومن ثم فالهويات الثقافية هي التي تمثل الخصوصيات الحضارية لا سيما بعد أن اشتركت أغلب الأمم في الأخذ نوعًا ما بسبل التحديث- كما قلنا- ومع ذلك ظلت الحضارة الإسلامية متمسكةً بهويتها الثقافية على الرغم من الاستعمار الغربي لها فلم تنجرف كما كان الحال مع الحضارات الأخرى التي تكيفت مع الحضارة الغربية وأخذت نفس أنظمتها، على الرغم من أن العالم الإسلامي يقع في منطقة تفصل بين المسيحيين الكاثوليك في الشمال والأرثوذكس في الجنوب، فلم تفلح حملات التغريب والتبشير بل ظل المسلمون صامدين من أجل الحفاظ على ثقافتهم.

ثم يأتي التصنيف الأخير للعالم، وهو أمريكا والباقي أو دول المركز والأطراف أو المحيط باعتبار الولايات المتحدة الأمريكية هي المركز الذي تدور في فلكه الكواكب، ولا ريب أن هذه التصنيفات عنصرية، تثبت الأنا وتقصي الآخر بعكس رؤية المسلمين قديما للعالم كله، إذ رأوا أن هناك أقسام ثلاثة: للعالم دار الحرب ودار السلامة ودار المهادنة والمستأمنين على الرغم من تحفظنا على هذا التقسيم.

جدير بالذكر أنه كان لزاما على الحضارة الغربية أن تكيف نفسها لاستيعاب الآخر بتنوعاته الثقافية والحضارية لا أن يتوقع خبراء الأمن القومي حالات الصراع والصدام[1]، فالأولى أن يخططوا لاستيعاب الثقافات كما في نموذج الحضارة الإسلامية عوضا عن محو تلك الثقافات، والحق أن هذا الإجراء التخطيطي يذكرنا بجريمة الأمريكان في حق الهنود الحمر وكذلك في حق الأفارقة السود من محوٍ للأُول وعنصرية ضد السود انتهت إلى دمجهم على مضض واعتبارهم مواطنين وفقا لمبدأ المواطنة في الحقوق والواجبات.

(١) عبد الرزاق الدواي: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، مرجع سابق، ص ١٢٥.

وتأسيسا على ذلك نجد أن بعض الباحثين ينفي أن يكون على أرض الواقع ما يسمى صراع بين الحضارات؛ لأن الحضارات هي منجز إنساني كوني عام، والذي يوجد على صعيد الواقع هو صراع ثقافات، وكل ثقافة تصنع أمة وحضارة فيكون الصراع في جوهره صراعا بين هاتين الثقافتين، وبناء عليه ينتهي إلى أنه صراع بين الثقافات وليس بين الحضارات، يقول أحد الباحثين: لا يوجد على مستوى العلاقات بين الحضارات صدام أو صراع وإنما يوجد تناقض الثقافات ورؤية كل جماعة إنسانية لنفسها والآخرين، وهذا التناقض يكون سببا للصدام والتنافس(١) ، وهذا يعني أن الصدام ليس بسبب الحضارات ذاتها وإنما يرجع السبب فيه إلى قلة من المتطرفين والأصوليين على الجانبين.(٢)

ويبدو أن هنتنجتون كان ينتمي إلى التصنيف الثالث قبل الأخير الذي ذكرناه فقد ذكر سبع حضارات (الغربية، الأمريكية اللاتينية، الصينية، اليابانية، الإسلامية، الهندوسية، السلافية الأرثوذكسية) والثامنة محتملة، وهي الحضارة الإفريقية غير مهتم بدور الدول في التحكم وتشكيل الثقافات والعلاقات الدولية وفقا لمصالحها(٣)، ومن هنا قد تتحالف دول إسلامية مع أخرى غربية من أجل مصالحها على الرغم من اختلاف الحضارة والثقافة، وقد حدث ذلك في تأييد دول عربية لغزو العراق قبل سنوات، كما تتحالف أخرى حاليا معهم في مقاطعة بعض الدول العربية لدولة أخرى شقيقة من دول التعاون الخليجي بمباركة أمريكية. ومن هنا يرى د. فؤاد عجمي أن رأي هنتنجتون في الدول

(١) محمد محجوب: الغرب والشرق وحوار المستقبل، ص١٣١.

(٢) د. محمود حمدي زقزوق: الإسلام وقضايا الحوار، ترجمة د. مصطفى ماهر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطابع الأهرام، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٥٣.

(٣) وربما كان من المؤمنين بأن دور الدولة سيتلاشى في عصر العولمة أمام دور المجتمعات والشعوب بحيث تصبح الشعوب بلا دول.

ستحارب من أجل الروابط والولاءات الحضارية في حين أنها تتدافع بالمناكب من أجل حصصها في السوق وتتعلم كيف تتنافس في اقتصاد عالمي لا يعرف الرحمة، وكيف توفر الوظائف وتتخلص من الفقر.[١]

انتقد نظريته جيمس كورت ورأى أن الصدام الحقيقي سيكون داخل الغرب نفسه أو داخل عقل الحضارة الغربية في أوساط طبقة المثقفين الأمريكيين كالذي يدور بين الليبراليين الذين يؤمنون بالتعددية الثقافية والمحافظين الذين لا يؤمنون بالحضارة الغربية بما هي موجودة الآن ويؤمنون بما قبل الحضارة الغربية[٢] والخوف من التعددية الثقافية في تفكك الولايات المتحدة الأمريكية وفقدان الرابط بينها، ورأى إدوارد سعيد بأن كلام هنتنجتون عن صدام الحضارات دون مستوى النظرية؛ لأنها لم تعتمد معيارا واحدا لتصنيف الحضارات، فأحيانا يصنفها على أساس جغرافي وأحيانا على أساس ديني، وكذلك يتناسى الصراع الاقتصادي أو بين القوي الغني والضعيف، وإن كان يثبت في النهاية أن العدو الحقيقي هو الإسلام والعالم الثالث بدلا من الشيوعية والاتحاد السوفيتي السابق.[٣]

إن نظرية صدام الحضارات مضادة لمسيرة التاريخ والحضارة، ولا تنسجم مع معطيات التاريخ والحضارات الإنسانية، والمشترك الإنساني هو نتيجة التقاء الحضارات وتفاعلها عبر التاريخ ولا يمكن أن نتصور نموا مستقلا لكل حضارة إنسانية بدون اتصال بالحضارات السابقة عليها والمعاصرة لها[٤] وبناء

---

(١) نقلا عن محمد محجوب: الإسلام والغرب وحوار المستقبل، ص ١٣٤.

(٢) د. زكي الميلاد: المسألة الحضارية، مرجع سابق، ص٦٦.

(٣) انظر: إدوارد سعيد: صدام المفاهيم، الكرمل، فصلية ثقافية، عدد ٥٣، خريف١٩٩٧، ص٥١ وما بعدها.

(٤) د. محمد خليفة حسن أحمد: الحوار منهجا وثقافة، مرجع سابق، ص ١٢٦.

عليه فالصراع ليس حتميا، لأنه يجافي سنة التاريخ ويتعارض مع طبيعة الحضارة، فالحضارة لا طابع عرقي لها، وهي لا ترتبط بجنس من الأجناس ولا تنتمي لشعب من الشعوب، على الرغم من أن الحضارة قد تنسب إلى أمة من الأمم أو إلى منطقة جغرافية من مناطق العالم على سبيل التعريف ليس إلا، بخلاف الثقافة التي هي رمز للهوية، وعنوان على الذاتية وتعبير عن الخصوصية التي تتميز بها أي أمة من الأمم أو أي شعب من الشعوب.(١)

ولا ريب أن إشاعة هذه النظرية يمثل مبادرة عدوان على الآخر(المسلمين) يستدعى في ذاكرتهم ما لحق بهم من عدوان حقيقي في صورة الاستعمار الغربي لدول العالم الإسلامي في مطلع القرن التاسع عشر والاستيلاء على ثروات بلادهم، وهذه الصورة ما زالت مترسبة في الذهنية العربية كما ترسبت الحروب الصلبية في الذهنية الغربية تماما بيد أن ذاكرة العرب قد أصابتها تيارات الحداثة والغزو الفكري فأنستها الألم والدم والجهاد. لاريب أن نظرية صدام الحضارات لا تدعم الحوار والسلام بل تسعى إلى تأسيس نظام عالمي جديد يدفع باتجاه الإرهاب الدولي المنظم أو ما يسمى إرهاب الدول من قبل الحضارة الواحدة المستعلية في الأرض التي تريد أن تجعل أهلها شيعا، فوفقا لهذا المنطق الفرعوني سعت إلى تأجيج الخلافات بين المختلفين العرب حتى تروج صناعة السلاح، وهي صناعة مهمة بالنسبة للغرب وتدر ربحا كبيرا، ومن ثم فلا يجب أن تتوقف تلك الصناعة بأن تجد لها سوقا في الشرق، ومن ثم يخلق العداء مثلما جرى في حرب الخليج الأولى١٩٨٠-١٩٨٨ والثانية ١٩٩١ ورغبة الدول الضعيفة في التسليح والاستعداد؛ مما زادت وعقدت الصفقات مع أغلب الدول العربية طمعا في الحماية واسترضاء للقوى العظمى، وما تزال تلك

(١) د. على ليلة: تفاعل الحضارات بين إمكانيات الالتقاء واحتمالات الصراع، دار شركة الحريري للطباعة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، ط١/٢٠٠٦، ص٩٨.

الصفقات تقعد حتي يومنا هذا. ولو كان المسلمون العرب يعرفون الطريق إلى نهضتهم لعلموا أن قوة الحضارة تكمن في قوة الأخلاق، وهو الجانب الحضاري الذي تفتقده الحضارة الغربية، وتسعى إلى تدميره في الأمم الأخرى عبر تيارات العولمة الإباحية، ومن ثم يمكن أن تستمر في الوجود، لأن القوى الأخلاقية تعني عند المسلمين أن تكون الدنيا في يدك لا قلبك، ومن ثم يصبح كل مسلم مقاوم بمثابة قنبلة ذرية متحركة بل أقوى منها مخافة بحيث يمكن أن تدمر الآخر المغتصب للأرض والعرض لا أن تدمر العالم كما في السلاح النووي.

إن هذه الخطوات الاستباقية والعملية في ذات الوقت التي ترتبت على الزعم بصدام الحضارات الغرض منها وقف المد الإسلامي الذي انتشر في الغرب وهدد نسيجه بحيث أثبت معه الجاليات الإسلامية نجاحها في العمل والحياة؛مما زاد في رغبة الغرب في الحفاظ على الانفراد في التحكم في مصالح العالم بزيادة التخويف من المسلمين ونعتهم بالإرهاب بعد أن كانوا متخلفين رجعيين–في نظر الغربيين– في مرحلة الحرب الباردة، ومن ثم فهذا الكتاب "صدام الحضارات" يؤسس لمرحلة جديدة يرتكب فيها العنف وتمارس البلطجة السياسية باسم فرض الحريات والحفاظ على حقوق الأقليات ونشر الديمقراطيات، ومن هنا قامت الحرب في العراق وأفغانستان كي تكون رادعا لكل من تسول له نفسه الخروج عن قبضة الولايات المتحدة الأمريكية، وفي الوقت الذي نطلب الحوار يطلب الغرب الدمار وفرض القوة على الحق لا فرض قوة الحق، وذلك ما نراه في سوريا والصومال وكل بلاد الربيع العربي. إن هذه النظرية تقسم العالم إلى دول صديقة تحارب الإرهاب مع أمريكا، والدول الباقية الأخرى هم الأعداء الذين يمثلون محور الشر فلا تعايش ولا امتزاج مثل كوريا الشمالية ليبيا وغيرها.

والحق أن نظرية صراع الحضارات أو صدامها فكرة شيطانية يراد بها نشر العداوة والبغضاء بين الشعوب مما يعطي قوى العدوان ذريعة للسيطرة على ثروات الشعوب[١] ويروج لها من قبيل إثارة الرهبة في قلوب الذين لا يحبون الآخرة حتى يذعنوا ويسلموا بالأمر الواقع، أمام تيارات العولمة الجارفة، وأن أية محاولة للخروج عن القطيع العالمي سيكون مصيرها الصرع والإهلاك والصدام، ثم بعد ذلك نبحث عمن يثير الإرهاب في العالم! وليس معنى أن هناك توترا في العلاقات أو صراعا بين الشرق والغرب أنهما لن يلتقيا أبدا كما قال أحد الغربيين، لأن الغرب ليس هو أنظمة الدول فقط ولكنه مكون من شعوب إنسانية تحترم حرية التعبير وتسعى إلى غاية هي تحقيق العدل والخير، ولها من المصالح ما يمكن الحوار من أجله.

وخلاصة الأمر أن هناك صداما حقيقا وآخر موهوما، فأما الصدام الحقيقي الأول فهو الصدام الواقع بين إسرائيل المحتلة باعتبارها تمثل القاعدة العسكرية للحضارة الغربية في الشرق والمقاومة من شعب فلسطين المحتلة والأمة العربية والإسلامية أو ما يسمى في الأدبيات السياسية الصراع العربي الإسرائيلي، فما زال الصراع تارة والصدام أخرى منذ احتلال الأرض سنة ١٩٤٨، إلى عدوان إسرائيل على لبنان ٢٠٠٦، إلى الانتهاكات اليومية للشعب الأعزل قتلا واستيطانا وتهجيرا، وقد كانت الحضارة الغربية (المسيحية – اليهودية[٢]) التي يخشى هنتنجتون من صدام قد يقع لها في المستقبل القريب – وهذا هو الصدام الموهوم – وهي التي أحدثت هذا الصدام الحقيقي في الماضي

(١) انظر: د. محمد شامة: حوار الأديان ودور الدعوة الإسلامية في مواجهة التحديات، مكتبة وهبة، ط١/٢٠٠٧، ص ٤٥.

(٢) وقد يكون هذا التحالف من قبل البروتستانتية اليهودية مع اليهود هي ما أشار الله تعالى إليه بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١] .

حينما أعطى من لا يملك(انجلترا) من لا يستحق(إسرائيل) كما في وعد بلفور١٩١٧، وحينما دافعت الولايات المتحدة الأمريكية عن حقوق اليهود في فلسطين وأعرضت عن حق الفلسطينيين في المقاومة والدفاع عن أنفسهم وأعراضهم، وطففت في الميزان وكالت بمعيارين، ودفع العرب وأصحاب الحق للحوار والسلام وغيرها من الموائد التي لم تُرجع الحق المسلوب، فهل هذا ما يخشاه هنتنجتون على الأخت الكبرى بعد عقد معاهدات كامب ديفيد الأولى ١٩٧٨ والثانية أوسلو ١٩٩٣، أم ما يزال يراوده رجيع حُلْم الخوف من الدم والصدام مع أصحاب الحق؟!!

المبحث الثالث

مسيرة الحوار الحضاري من التعارف إلى التحالف

أولا: الحوار الحضاري (السلامة):

قُدِم هذا المفهوم (حوار الحضارات) باعتباره البديل الموضوعي لصراع الحضارات أو صدامها، وكذلك باعتباره الطريق الثالث بين الصراع من جهة والصدام من جهة أخرى، أو هو حوار المصالح بعبارة أكثر تعبيرا عن الواقع، أو هو الطرف الحاسم لجدلية الصراع والصدام، أو هو الحل الآمن بدلا من فوضى الصدام الخلاقة، وأضيف إلى ذلك بأنه هو حوار السلامة والمسالمة الذي يطالب به الطرف الأضعف في المعادلة.

قد يظن البعض أن الدعوة إلى حوار الحضارات كان من ثمـــار نهايـــات القرن العشرين، وأنها رد فعل على نظرية صدام الحضارات بل الحق أنه سابقة عليها، والحاجة إليه كانت ماسة بعد الحرب العالمية الأولى والثانيـــة أي فـــي بدايات القرن العشرين وأوسطه، فحينما احترب العالم ووقعت الأمم في تحالفات عسكرية متصارعة كانت الحاجة ماسة إلى السلام بدلا من الحرب لا سيما بعد أن فشلت عصبة الأمم بوقوع الحرب العالمية الثانية التي راح ضحيتها ملايين من البشر، ولا يكون السلام بغير الحوار بين تلك الثقافات المتنازعة، ومن هنا أنشئت بعض المؤسسات من أجل حفظ السلام والأمن في العالم مثـــل مجلـــس الأمن، والأمم المتحدة، وبعض التحالفات الأخرى.

من المعلوم أن الحضارات المتفوقة القوية لا ترغب كثيرا في الدخول في حوارات إلا مع الحضارات التي تماثلها في وضعها، وربما يرجع ذلك إلى أنها مكتفية بذاتها أو ليس لديها تطلعات خارجية أو لديها لون من التعالي على غيرها، وإذا نظرنا إلى الحضارة الغربية سنجد أنها في عصر النهضة كانت

مشغولة بقضاياها الداخلية ثم تحولت إلى عصر الأنوار الذي اعتمد فيه الإنسان على عقله فحسب وأنشأ الدولة ثم جاء عصر الثورة الصناعة الأولى والثانية في القرن التاسع عشر والعشرين، وهنالك كانت حاجته إلى الآخر تكمن في حاجته إلى تصدير فائض الإنتاج واستيراد المواد الخام، وهي لا تتساوى بإطلاق مع حاجته إلى الحوار، ومن ثم لجأ إلى معرفة الآخر معرفة وفق قواعد المنهج العلمي الحديث عن طريق بعض المستشرقين الذين مهدوا الطريق إلى استعمار العالم الثالث فيما بعد، وحينما دخل المجتمع في عصر الحداثة والتكنولوجيا وما بعدها اكتشف أنه ليس في العالم وحده وإنما هو في حاجة إلى لون جديد من السيطرة والاستحواذ يكون بها ضامنا لاستمرار الصناعات لاسيما صناعة السلاح التي راجت وتطورت في القرن العشرين، ولا ريب أن وجود إسرائيل وزراعتها في المنطقة يعدّ ضامنا لاستمرار هذه الصناعة؛ لأنها تمثل القاعدة المتقدمة للغرب في الشرق الإسلامي، علاوة عن دورها المهم في تفتيت المنطقة من بوابة الصراعات العربية- العربية، ومن هنا ترتكز كل دولة صغيرة على التحالفات والمعاهدات والاتفاقيات مع الدول العظمى خشية من جارتها الأقوى منها، وبناء عليه يمكن القول بأن حل مشكلة فلسطين يعد من أهم المسائل التي يجب أن تمنح أهمية كبرى في بدء حوار حضاري حقيقي.

لست مبالغا إذا قلت إن هناك سيلا جارفا من الدراسات التي تعرضت للحديث عن حوار الحضارات صراحة أو ضمنا لاسيما بعد الأحداث التي أعقبت الحديث عن صدام الحضارات وعقدت من أجل ذلك مؤتمرات وندوات وحوارات وتحولت المسألة الإطار النظري إلى الإطار المؤسسي فأضحت السياسات والمنظمات الدولية تهتم بإبراز نقاط الحوار والأمن والسلام حتى لا تنجرف البشرية نحو الخراب والدمار لاسيما في أعقاب دعوات الصراع والصدام بين الحضارات. وأغلب هذه الدراسات ترمى إلى التأكيد على الحوار

الخارجي دون أن تلتفت كثيرا إلى الحوار الداخلي أو ما أعنيه حوار الذات لا حوار الذات مع الآخر. فاستمرار الحوار الداخلي يمثل نوعا من الدربة والتمرس وامتلاك القوة التي تدافع عن الذات. ومن ثم فالحوار الداخلي قد يكون بين المؤمنين وغير المؤمنين أو بين العلمانيين والإسلاميين إلخ. ولا يطيب في الحوار الذاتي في الداخل أن نقف عند نقد الذات وجلدها فحسب ولا أن نقف عند نقد الآخر بل يستحسن عدم الدخول في حوارات تتعلق بالأديان كعقيدة؛ لأن نتائج الحوار قد تكون غير مرجوة أو يكون ذلك سببا في انقطاع الحوار مع الآخر، وكذلك لا يجدر بالحوار الحضاري أن يقف عن حوار الثقافات بل إنه يتجاوز ذلك إلى تناول قضايا مصلحية أو مشكلات حقيقية ناجزة تحتاج من كل طرف أن يسهم في حلها بطريقة قد يوافقه الآخر عليها، وذلك وفقا لخريطة حوارية محددة سلفا بالموضوعات والمحاور والمصالح والأهداف والنقاط التي يمكن أن تكون محل اتفاق أو اختلاف ثم يكون الحوار حول المختلف فيه أملا في إيجاد حل أو اتفاق في ضوء المعاهدات والمواثيق الدولية. وبذلك يمكن أن تزول الضبابية التي رأها الجابري تحوم حول مصطلح حوار الحضارات باعتبار أن أهل حضارة ما ليسوا جميعا على وفاق فيما بينهم لا إزاء بعضهم البعض ولا إزاء الغير، ومن ثم لجأ إلى تسمية الأشياء بمسمياتها بأن (المصالح) هي التي تجمع الغرب بالشرق وفي مقدمتها النفط والموقع الاستراتيجي والسوق العربية، واعتبر أن تجاوز المصالح يعد مغالطة كبرى تهدف إلى صرف العرب عن المصالح الحقيقية ولن يكون هناك حوار حقيقي إلا بتوازن المصالح[١] وفي رأيي أنه ليس هناك تعارض فمن الممكن أن يكون الحوار موضوعه هو المصالح.

(١) انظر: عبد الرزاق الدواي: في الثقافة والخطاب، مرجع سابق، ص١٤٤.

إذا كانت فلسفة الغرب في نشوة الانتصار الحضاري قد تبنت منطق الصراع باعتباره المنطق الذي ينبغي أن ينظم التفاعل بين الحضارات، أي أن هناك حضارة واحدة غالبة تصرع غيرها وتستهلك خيرات غيرها من الحضارات هاضمة لها محقرة من شأنها ولا تتركها إلا وقد غزتها بقيمها وثقافتها ومنتجاتها فتكون الأخيرة تابعة ومقلدة لها، ومستسلمة بدورانها في فلكها- وإذا كان هناك ثمة تكتل أوروآسيوي يتجمع ليطور إرادة التحدي في مواجهة الحضارة الغربية – فإن هناك منطقا آخر هو منطق الحضارة العربية والإسلامية في الدفع والتدافع[1] يرى أن التعددية(في الألوان والأعراق والأجناس والألسن) هي الأصل بل مصدر إثراء وتكامل، وأن هناك حضارات متدافعة يمكن أن تتعايش وتتعاون وتتحاور حول المصالح الكبرى التي تهم الناس جميعا، فإن وقع صراع أو صدام "فإن الصراع حالة عارضة، وهو شذوذ عن القاعدة، وليس طبيعة من طبائع الحضارات؛ لأنه يتنافى والفطرة الإنسانية، وهو نقيض التفاعل الحضاري الذي قامت الحضارة الإسلامية على أساسه، وهو إلى ذلك كله، البديل الموضوعي للفوضى التي تسود الأوساط الفكرية والسياسية في العالم اليوم"[2] وقد ذكر رب الناس ومالكهم ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠] إن التدافع ليس حالة سكونية بين الأمم بل سنة إلهية من الحراك الذي يحيي به الله الأرض بعد موتها ويحافظ على نظامها من الفساد والركود "لفسدت الأرض" أي أن الدافعية ليست ذاتية من الطبيعة كما يرى الدهريون بل إنها دافعية إلهية، فيحرك الله الفطر كي تقر له

(١) انظر: د. على ليلة: تفاعل الحضارات، مرجع سابق، ص١٠٢.

(٢) د. عبد العزيز التويجري: صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، الرباط، المغرب، ط٢/٢٠١٥، ص٢٨.

بأفعال الربوبية، ويحرك سلوكهم إلى العمل الذي يحفظ عليهم حياتهم ونظامهم، ويحرك قلوبهم نحو رحمة من رحمته بغيرهم من الأمم والكائنات التي خلقها الله ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، إن هذه الحركة المتدافعة ليست مبناها حتمية الصراع الذي قد يقرأه الماركسيون أو السياسيون ويفسد به الكون أو الأرض، ولكن معناها التدافع الذي يتحقق به التوازن وطلاقة التسخير والسلام بين سائر الكائنات لا الموت والفناء والدمار للبشرية. ففلسفة التدافع الحضاري هي البديل الإسلامي لفلسفة الصراع الحضاري الغربية، ولذلك ازدهرت في دولة الإسلام وحضارته وأمته التعددية في الملل والنحل والشرائع واللغات والقوميات والعادات والأعراف، فعاشت الديانات الكتابية والوضعية ومؤسساتها في ظلال الحضارة الإسلامية(١).

ومن ضروريات هذا الحوار التعاون على البر والتقوى، ومعناه أن يعين الإنسان أخاه على كل ما فيه خير له أو لغيره من البشر عساه أن يكون من المتقين، والله تعالى أمرنا بذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] ومن هنا يأتي تلاقح الحضارات بأن تهدى كل حضارة منجزاتها إلى العالم لمساعدته للنهوض لاسيما الدول النامية لا أن تتعاون الدول القوية على وأد الضعيف أو إقامة الحكم عليه بالمحاصرة أو فرض العقوبات أو غيرها.

إن الحق بلا قوة ضائع لا محالة، والقوة بغير حق عدوان وطغيان، فقوة الحق في ذاته مسلم بها ولكنها لا تضعه في نصابه إلا بقوة من يعتقده ويدافع عنه، ومن هنا كان الأمر الإلهي بالإعداد التام وفق استطاعتنا وقدرتنا بكل ما من شأنه أن يمنح القوة الرادعة التي تحمى الحق ولا تطغيه أو تضيعه ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ

(١) انظر د. محمد عمارة: الحضارات العالمية تدافع أم صراع، مرجع سابق، ص ٢٠.

وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] فالإرهاب المفهوم من الآية ليس عدوانا بالفعل ولكنه إمكانية ردع العدوان وحماية الحق واحترامه عن طريق صناعة القوة والهيبة. والجنوح إلى السلم لا يكون بغير قوة تحميه وتردع من ينقض اتفاقه ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]. فقوة الآخر المخالف إذا كانت مكللة بالباطل فإنها تدفعه لا محالة إلى العدوان والسيطرة ولا يردعه إلا القوة المناظرة، أما إذا كان السلام هدفه وغايته فوجب الجنوح إليه. وهنالك يكون الحوار الحضاري هو البديل عن القوة.

ثانيا: تعارف الحضارات وتدافعها وتعايشها (الإسلام):

التعارف على وزن تفاعل، وهو أيضا يقتضي طرفين أو أكثر، والتعارف يعني التعايش السلمي عن طريق الاعتراف المتبادل بين الطرفين أو الأطراف المختلفة؛ وذلك لتحقيق التعاون في قضاء الحاجات المختلفة، ومادة التعارف مأخوذة من المعرفة بالآخر لا الجهل به، أو الاعتراف به وعدم الإنكار له على سبيل التواصل والتفاعل الدائر بين الفرد والمجموع، وغرض التعارف هو التفاهم والوئام والسلام لا التناكر أو التنافر أو الصراع أو الصدام، وأول مبادئ التعارف هو إلقاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف كما أخبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – عَنْ عَبْدِالله بْنِ عَمْرو رَضِيَ اللهُ عَنْهمَا أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: أيُّ الإسْلامِ خَيْرٌ؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ». متفق عليه. فالإسلام – كما ورد في الحديث– قدم الفعل وهو الإطعام(= الحياة) على القول إفشاء السلام=(الأمن)، وهذا هو منطق الإسلام في حفظ الحياة أولا والسلام العالمي(الأمن) ثانيا، ولا غرو فقد قال الله تعالى– ومن أسمائه السلام– في سورة قريش عن المشركين: ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ٤] فالحياة والأمن = السلام،وهو

ليس مجرد سلام فقط بل سلام عالمي. وذلك يعني أن التعارف في الإسلام ليس مجرد الحوار والاحترام والتقدير للآخر فقط بل أن نساعده بأن نقدم له ما يحفظ حياته أولا، وخصوصًا أن حفظ النفس من مقاصد الشريعة لاسيما إذا نزلت به كوارث أو نوازل؛مما يجعله آمنا ثانيا، ومن ثم جعل الإسلام مجرد إزهاق روح إنسانية واحدة بغير حق قتلا للإنسانية كلها كما جعل حياتها عفوًا وتسامحًا حياةً للبشرية كلها، ويقول الله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] ووفقا لهذين الأمرين(إطعام الطعام- إفشاء السلام)يتحقق السلام العالمي،فالتعارف لا يكون مع الخوف ولا يكون كذلك مع الموت والقتل، ولا ريب أن ذلك الحوار الحضاري التَّعارفي يتجاوز التعصب والانحياز والاتهام للآخر أو الإنكار والتعالي عليه أو غير ذلك لمجرد الانتماء إلى لسان معين أو قوم أو بلد أو عرق أو لون؛ لأنه مبنيٌّ على القاعدة الأخلاقية الكبرى التي يعتلي بها الإنسان على غيره ألا وهي تقوى الله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالتعارف كمبدإ إنساني حضاري سامٍ له أكبر الدور في منع النزاعات والصراعات، فهو يقرّب الأفكار والمسافات وينسج أواصر التعاون والتفاهم ويهدف إلى بناء أسس حوار حضاري مثمر وبناء.

وقد دعا إلى هذا المفهوم القرآني(التعارف) د. زكي الميلاد حيث نشر بحثًا في مجلة الكلمة في صيف عام ١٩٩٧م شرح فيه المفهوم وبيَّن اختلافه عن مفهومي صراع الحضارات وحوار الحضارات، يقول د. زكي الميلاد: "ولقد كونت نظرية من خلال دراسة هذه الآية في عناصرها ومكوناتها التجزيئية والتركيبية، أطلقت عليها نظرية تعارف الحضارات واعتبرتها الطريق الثالث

الذي بحاجة لاكتشاف مقابل ما يطرح في الغرب من صدام الحضارات وحوار الحضارات، فمن غير أن تبدأ الحضارات من التعارف لن تتخلص من رواسب الصدام لتصل إلى حوار الحضارات"[١] وذلك أن التعارف سابق في رأيه للحوار، والتعارف هو الذي يحقق وجود الآخر ولا يلغيه ويؤسس العلاقة والشراكة والتواصل معه لا أن يقطعها أو يمنعها أو يقاومها. "على أن مصطلح (الحوار بين الحضارات) يكاد يفرغ من مضمونه ومحتواه الصحيح؛ لأنه لا يقوم في أغلب الأحيان على أساس من التعارف المسبق الكفيل بانفتاح كل طرف على الآخر، كما لا يقوم أيضا على أساس من (احترام الخصوصيات الدينية والثقافية"[٢]

اعتمد زكي الميلاد في نظريته القرآنية على آية سورة الحجرات التي أشرنا إليها وقام بتحليلها بالرجوع إلى أقوال المفسرين حولها ثم حاول بعد ذلك تركيب تلك العناصر واستخلاصها في نقاط مثلت نظريته ورؤيته للعلاقة بين الحضارات[٣] قبل أربعة عشر قرنا من الزمان، ويمكن إجمالها في الآتي: أن القرآن الكريم خطاب للناس جميعا متجاوز للزمان والمكان ومتجاوز- كذلك- لكل الانتماءات والاختلافات من حيث اللغة والعرق والقوم واللون حيث يردهم إلى الأصل الواحد (الذكر والأنثى) الذي تسقط به كل تلك الفروق المعتبرة والتي على أساسها يتنوع الناس إلى شعوب (تعيش في مكان محدد) أو قبائل (يجمعهم نسب واحد) أو هما معا فتتكون (الأمم)، والفروق المتنوعة التي بينها ليست داعيا للتخاصم أو الصراع أو التنابز بل نجد أن القرآن يقر بمبدأ التفاضل

(١) د. زكي الميلاد: المسألة الحضارية، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٢) انظر: حسن عزوزي: الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري في عصر النهضة، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث مجلد ٦، العدد٢٣، ١٤٣١-٢٠١٠، ص ٦٤.

(٣) انظر: المسألة الحضارية، ص ٧٠ وما بعدها.

ولكنه يختلف في الأساس الذي يبنى عليه، وهو التقوى والأخلاق والقيم التي تحتاجها وتفتقدها الحضارات في عالمنا المعاصر، وإذا كان التعارف مبنيًّا على التقوى فهو أدعي للتواصل والحوار والتعايش والسلم والسلام؛ لأن الصدام بين الحضارات لن يكون نابعا إلا من الجهل بما عند الآخر من سمات حضارية والاكتفاء بمعرفة شيء سطحي عن تلك الحضارة فليست الحضارة الغربية هي العريّ والفجور والفسق والمخدرات والاغتصاب والشذوذ فحسب، وليست كذلك الحضارة الإسلامية هي الإرهاب والقتل وارتفاع نسبة الأمية والجهل والتخلف والتراجع والانحطاط، فهذه الصور الترويجية الإعلامية لا تعبر عن حقيقة الحضارتين، والتعارف الحقيقي هو الذي يكشف عن أصلهما وحقيقتيهما.

إن من شروط قيام الحوار الحضاري هو الاعتراف بالآخر، وهو لا يقتصر فقط على معرفة وجوده أو زمانه، ولكن يكون بالتفاعل معه والتجاوب والتعارف والتفاهم والتعاون، ولا ريب أن ذلك ضروري لاسيما إذا كانت هناك وحدة من حيث الأصل الإنساني الواحد، فكل الناس لآدم سواء أكانوا شعوبا أو أمم أو حضارات والله تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] فهذا (الأصل الواحد) الذكر والأنثى أو (آدم وحواء) هو الذي تبعه ذريته (رجالا ونساء) على اختلاف ألوانها وأعراقها وألسنتها فالله قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ومن الشعوب والقبائل(التنوع الثقافي) تتكون الأمم وتتنوع، سواء أكانت تلك الأمم بشرية أم أمم أخرى كالطير والدواب التي أخبر القرآن بأنها أمم أمثالنا ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

[الأنعام: ٣٨] كما أن الإنس والجن أمم أخرى ﴿ قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] وهذا يعني أن العالم ليس أمة واحدة وأن التنوع والاختلاف سنة إلهية أرادها الله للعباد حتى يتعارفوا ويتدافعوا ويتعاونوا ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود: ١١٨] ولكن الذي قد يكون قد فات زكي الميلاد هو أن يفرق بين المعرفة والتعارف، فالمعرفة قد خبر بها الغرب الشرق فيما يعرف بدراسات المستشرقين ومناهجهم القديمة والجديدة وعرف بها اليهود نبوة محمد ومع ذلك لم تدفعهم للإنصاف أو الرجوع إلى الحق، ولكن التعارف له مفهوم أسمى لأنه منطلق من التقوى وحسن الخلق مع أي إنسان وفي أي مكان أو زمان، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة وخالق الناس بخلق حسن[1] وتلك الغاية هي ما غابت عن الغربيين فوقعوا في الصدام، وتأسيسا على ذلك فالتعارف هو منهج الإسلام في الحوار بين الحضارات وذلك يلزم عنه بعض الأمور منها:معرفة لغة الآخر، ودراسته أو ما يسمى علم الاستغراب كما كان الاستشراق، ودورهما في التعارف بعيدا عن الأهداف الموجهة، فضلا عن الرحلات والهجرات والبعثات، وما يلزم عنهما من نقل وترجمة.

ثالثا: تحالف الحضارات (السلام):

التحالف أيضا على وزن تفاعل يقتضي طرفين – أو أكثر– يسعى كل منهما إلى الآخر كي يتعاون معه على تحقيق بعض المصالح الخاصة التي

(١) جامع الترمذي، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في معاشرة الناس، رقم ١٩٨٧، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

يرتضيها الطرفان معا، وغالب الأمر أن هناك عدوا مقصودا في حالة تحالف الحضارات، وهو الإرهاب الذي تعرضت له أسبانيا يوم ١١ مارس ٢٠٠٤ الأمر الذي دعا الوزير الأول الإسباني السيد ثاباتيرو إلى إطلاق ندائه إلى تحالف الحضارات، أي أن البحث عن الأمن والسلام ومقاومة الإرهاب كان البعد الأول والمركزي وراء فكرة التحالف على الأقل في المرحلة الأولى من إطلاق الفكرة.(١) ثم تطورت فكرة التحالف من بعدها الأمني إلى محاولة رأب صدع الانقسامات والأحكام المسبقة وسوء التفاهم لاسيما بعد راجت نظرية صدام الحضارات، وتوترت علاقة الشرق بالغرب بعد أحداث ١١ سبتمبر واتهام المسلمين بالإرهاب"، وهكذا توسع تحالف الحضارات من كونه تحالفا ضد الإرهاب إلى التحالف ضد سوء التفاهم بين الثقافات والأحكام المسبقة بينها، وذلك لتعزيز الاحترام المتبادل، كما توسع المفهوم إلى جوانب التنمية الاقتصادية والاجتماعية وأهميتهما في علاقة الترابط بين الثقافات"(٢)، ولا يخفَ أن هذه الدعوة قد لاقت قبولا في الأوساط العالمية؛ وربما يرجع ذلك طبيعة المكان الذي صدرت عنه وهو إسبانيا أوروبا أو أندلس الإسلام التي كانت معبرا مهما انتقلت منه الثقافة الإسلامية إلى الغرب، ومن هنا حدد ثابيترو أطراف التحالف الغربي والإسلامي على وجه الخصوص كما اتضح ذلك على منبر الأمم المتحدة سبتمبر ٢٠٠٤ ثم في قمة الجزائر العربية٢٠٠٥ لما حدث في السنوات الأخيرة من تأجيج للشك والخوف وسوء التفاهم بين المجتمعات الإسلامية والغربية(٣).

---

(١) انظر: المنجي بوسنينة: من حوار الثقافات إلى تحالف الحضارات إشكاليات اليوم ورؤى المستقبل، الندوة الدولية التي عقدتها الإيسيسكو "الحضارات والثقافات الإنسانية من الحوار إلى التحالف"، تونس، يناير ٢٠٠٧، ص٣٢٣.

(٢) المنجي بوسنينة: من حوار الثقافات إلى تحالف الحضارات، مرجع سابق، ص٣٢٤.

(٣) المنجي بوسنينة: من حوار الثقافات إلى تحالف الحضارات، ص٣٢٧.

لا يخفى على مطَّلع أن تحالف الحضارات كان عبارة عن مبادرة سياسية دعا إليها رئيس وزراء أسبانيا باثيرو عام ٢٠٠٤ من فوق منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٤م وتبناها الرئيس التركي رجب طيب أردوغان وكذلك تبنت الفكرة ورعتها الأمم المتحدة ٢٠٠٥ وجاءت الفكرة بعد أن ازداد الاحتدام بين الحضارتين الغربية والعربية، ومن هنا كانت الدعوة لتأسيس ما يسمي بالدعوة إلى تحالف الحضارات وفق برنامج سياسي من أجل تعزيز العلاقة المشتركة بين الأمم والمجتمعات"وتقوم هذه المبادرة على محاولة استيعاب التعددية التي تتسم بها العولمة مع انتشار ثورة الاتصالات بين مختلف الثقافات والحضارات بصورة متزايدة يوما بعد يوم، لتلعب الأمم المتحدة دورا أكبر في التقريب بين الشعوب ومن أجل محاولة تصحيح الفهم السلبي المتبادل القائم بين العالم الغربي والعالم العربي- الإسلامي، وهو المناخ الذي استغله وزاده سوءا المتطرفون في كل المجتمعات، ويقوم التحالف على تكوين خطوط عمل مشتركة على أكثر من مستوى يعززها العمل السياسي المشترك، الهادف إلى التقريب ما بين الأطراف على المستويات: الاقتصادي، الاجتماعي، الديني والثقافي، على أن يكون للعمل السياسي الدور الأساس في عملية التنفيذ وجمعهم في إطار مشترك فالمراد من التحالف، كمهمة متقاسمة قيام كل الحضارات بالمشاركة في هذه المهمة على قدم المساواة".[١]

من الواضح أن التحالف حظوة أبعد من الحوار وتترتب عليه، الأمر الذي يعني أن هذا الحوار قد أثمر تعاونا على أمر، ومن ثم فإن تحالف الحضارات

(١) انظر: معزة مصطفى أحمد فضل السيد: الإعلام الرقمي وانعكاساته على التعارف بين الحضارات دراسة وصفية تحليلية على عينة من الخبراء والمختصين في الإعلام من مايو٢٠١٤-٢٠١٧م، رسالة دكتوراه، كلية علوم الاتصال، قسم الإذاعة، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، السودان، ٢٠١٧، ص٢٤٢، ٢٤٣.

هو في العمق والجوهر خلاصة نظرية الحوار بين الحضارات[١] لأن الحوار ليس غاية في حد ذاته وإنما هو وسيلة للتعايش والتعاون والوحدة والشراكة في حل المشكلات الكونية التي تواجه الإنسان، وكيف يمكن له أن يتغلب عليها ولا يمكنه ذلك حتى يتجاوز عن حالات العداء وسوء الفهم المتوارث لسنين طويلة. وبناء عليه يعد تحالف الحضارات لونا من المسالمة والهدنة بين الأطراف والتعاون المشترك لمدد معينة وتكون هذه الفترات هي فترات سلام، قد تستمر إلى مرحلة سلام دائم ولا ريب أن التحالف ضرورة من ضرورات السلام القائم على الحوار، وهو أقوى بكثير في الوقت نفسه من السلام القائم على الحرب.

وقد عالج الدكتور التويجري هذا المصطلح في عدد من كتبه التي تناولت الحوار وخصها بكتاب بعنوان "على طريق تحالف الحضارات" واعتبر أن الكتب الثلاثة الأولى[٢] كانت بمثابة المقدمات لهذا الكتاب الأخير، أي أن الحوار مقدمة للتحالف بل هو جوهره الذي خرج من رحمه، وكل فكرة تدعو إلى العدل والأمن والسلام فهي تصب في قناة التحالف والتقارب والتعاون والتعايش بين الحضارات[٣] وكي يقوم هذا التحالف بين الأسر الدولية والمنظمات والمؤسسات يتطلب الاحترام المتبادل واستتباب الأمن والسلم والمساواة بين الدول أمام القوانين والحرص على المصالح المشتركة، ولا يشترط في التحالف الأطراف المتكافئة من حيث هو حلف يجمع بين فرقاء متعددي الثقافات متنوعي المشارب

(١) انظر: د. عبد العزيز بن عثمان التويجري: الحوار وتحالف الحضارات، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ٢٠٠٩م، ص١٢.

(٢) وهي الحوار من أجل التعايش١٩٩٨، وأفكار للحوار٢٠٠٦م، والحوار مع الذات والآخر٢٠٠٩م.

(٣) انظر: د. عبد العزيز بن عثمان التويجري: الحوار وتحالف الحضارات، مرجع سابق، ص١٣.

متفاوتي القدرات[١] والمجتمع الدولي أشد ما يكون حاجة إلى التحالف بين الحضارات في الوقت الراهن لا سيما بعد أن فشلت السياسة الدولية والدبلوماسية التقليدية في إيجاد حلول عادلة، ويرى د. التويجري أن فكرة تحالف الحضارات تعد تجديدا للبناء الحضاري للعالم أجمع دون أن يقتصر الأمر على الحوار فقط بل بالتعاون المثمر على هدى تعاليم الديانات السماوية والمبادئ الإنسان في إطار ميثاق الأمم المتحدة ويلقي مهمة هذا التحالف على أولي العزم والحكمة وذوي الإرادات الخيرة والعقول النيرة من مختلف المشارب والاتجاهات من جميع الحضارات[٢] واقترح في إطار العلاقات الدولية أن تكون هناك مؤسسة تسمى منظمة الحضارات المتحالفة تكون رديفا للأمم المتحدة وداعما لها لاسيما بعد الخروقات الدولية التي ارتكبتها الدول الخمسة دائمة العضوية في مجلس الأمن، والتي لها حق السيادة على غيرها في اتخاذ قرارات تتعلق بمصالحها أو مصالح حلفائها وإن حال دون تحقيق تلك الفكرة صعوبات كثيرة تعترضها من قبل قوى دولية تتعارض مصالحها مع تحقيق هذه الأهداف النبيلة. وينتهي إلى القول: لقد ترسَّخ في نفسي ... اقتناع بأن تأصيل مفهوم تحالف الحضارات لا بد أن ينطلق من المبادئ الجامعة بين الثقافات والحضارات الإنسانية، وأن تراعي فيه الحاجة الملحة لاستتباب الأمن والسلام في ربوع العالم، وضرورة العمل تحت مظلة ميثاق الأمم المتحدة وفقا للقانون الدولي الذي هو العاصم من الانحراف عن الأهداف السامية والنبيلة لتحالف الحضارات"[٣].

---

(١) انظر: السابق نفسه، ص١٥.

(٢) انظر: السابق نفسه، ص١٦.

(٣) انظر: السابق نفسه، ص٣٢.

ولكن نلحظ أن د. التويجري ارتضى مصطلحا آخر يصب في نفس الاتجاه وهو التعايش بين الحضارات وهو سابق على التحالف حيث رأى أن الحضارة في عمقها هي القدرة العالية على المشاركة في صنع الحاضر وصياغة المستقبل، والفعل الحضاري هو الجهد البشري الذي يبذله الأفراد أو الجماعات لتحقيق هاتين الغايتين إلى أن يقول: وهذه المشاركة تكتمل بالتعايش الثقافي الحضاري بين الشعوب والأمم على أساس التعاون، تحكمه القيم الإنسانية النبيلة، وتضبطه القواعد الحكيمة ففي ظل هذا التعايش تتضح الثقافات وتزدهر الحضارات وتتوطد العلاقات بين الأمم والشعوب، ويسود الأمن بشتى معانيه، والسلام بمختلف دلالاته العالم كله، وهذا التعايش الثقافي والتساكن الحضاري هما اللذان يمهدان للحوار الذي هو ضرورة من ضرورات العيش.(١)

إن مشروعية التحالف بين الحضارات يمكن التماسها قديما فيما قدم عليه النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– مع الأمم الأخرى كما في حلف الفضول الذي دعي إليه في الجاهلية ولو دُعِي إلى مثله في الإسلام لأجاب، وكذلك في كما كان في صلح الحديبية الذي ترتب عليه الفتح المبين لمكة، وذلك يعني أن إقامة التحالفات مشروعة مادامت تحافظ على الدين وأصوله ما كانت في مصلحة المسلمين. ولكن قبل أن يفكر المسلمون في إقامة تحالف مع قوى غربية فلا بد عليهم من إقامة تحالف داخلي بين البلاد العربية إحياء للوحدة الإسلامية أو الجامعة الإسلامية التي دعا إليها من قبل في القرن التاسع عشر السيد جمال الدين الأفغاني(ت١٨٩٧) ومصطفى كامل ومن سار على دربهم.(٢)

---

(١) الحوار من أجل التعايش، ص ٦.

(٢) راجع: د. محمد عمارة: الجامعة الإسلامية والفكرة القومية نموذج مصطفى كامل، دار الشروق، ط١/١٩٩٤، ص٥٢.

خاتمة البحث:

يطيب لي أن نشير هنا إلى محاولة للجواب عن السؤال الذي سبق طرحه في بداية البحث وهو هل الحضارات تتفاضل فيما بينها؟ وجواب ذلك قد يحتاج إلى بحث آخر مستقل، ولكني أود أن أجمله في الآتي من خلال تناول فكرة جديدة، تضاف إلى النظريات والأفكار السابقة، فإن كان زكي الميلاد قد تحدث عن تعارف الحضارات، وأكد التويجري على تحالف الحضارات فإني أنتهي إلى أمرين مهمين يتعلقان بضرورة تكامل الحضارات:

الأول: تكامل الحضارات، فالحضارات لا تقوم بذاتها ولا تنعزل عن بعضها وإنما تتفاعل فيما بينها من خلال علاقات تربطها ببعضها قد يسودها لون من الحوار أو الصراع أو الصدام أو التحالف.ففي الوقت الذي كانت الحضارة الإسلامية في أوج ازدهارها يعلوها تاجُها كان علماؤها يتناولون هذه المسألة هل تتفاضل الحضارات فيما بينها؟ والحق أن دوافع هذا السؤال الخفية كانت تدور– في الحضارة الإسلامية – حول سؤال آخر أوضح، وهو هل العرب كأمة أفضل على وجه التحديد من الفرس؟ وأتى جواب السؤال في الحركات الشعوبية من تاريخ الحضارة الإسلامية، أي أن يكون هناك شعب أو أمة أفضل من غيرها وتدعو لنفسها فإذا برهنت على أنها الأرقى والأفضل كان لها السيادة والسياسة والحكم، وهي دعوة عرقية قومية تحمل بذور التعصب والفرقة وتؤثر سلبًا على الأمم لاسيما التي تتكون من العديد من الأجناس والأعراق المختلفة كالأمة الإسلامية.وبناء عليه انقسم العروبيون من جهة والشعوبيون من جهة أخرى، وفي ثنايا هذا الصراع بين الفريقين ظهرت هنالك فكرة الحكمة الأبدية التي ترى أن الحضارات تتكامل فليست هناك حضارة أعلى كعبًا من أختها، وراجت هذه النظرية في القرن الرابع الهجري "وترتكز

على القول بأن جوهر الحضارات كلها واحد لأن جوهر العقل البشري واحد"[١] وقد أشار المستشرق روزنتال إلى هذه النظرية باعتبارها مثالا على تشابك الحضارات في قوله: "ولم تكن الاختلافات الظاهرة بالبينة بين حضارة وأخرى؛ مما يبطل نظرية الحكمة الأبدية(=الحضارة الواحدة) فإن هذه الحكمة ذاتها تظهر لدى مختلف الشعوب في مختلف أعضاء الجسم إذ يروي عن أبي سليمان السجستاني أنه قال: نزلت الحكمة على رؤوس الروم وألسن العرب وقلوب الفرس وأيدي الصينيين"[٢] ويعتبر روزنتال أن الجاحظ (ت٢٥٥هـ) من أول من قال بهذه النظرية في كتابه الحيوان إذ يقول: "إن حكمة الشعوب كافة تحدرت تدريجيًّا إلى الأدب العربي عن طريق الرواية المتسلسلة من أمة إلى أخرى، ومن جيل إلى جيل"[٣] أي أن العقل والحكمة والحضارة ليست حكرا على أمة دون أخرى، وقد أجاب عن سؤال المفاضلة بين الأمم أبو حيان التوحيدي في إثبات فضائل كل أمة بقوله: "فللفرس السياسة والآداب والحدود والرسوم؛ وللروم العلم والحكمة؛ وللهند الفكر والروية والخفة والسحر والأناة؛ وللترك الشجاعة والإقدام، وللزنج الصبر والكد والفرح، وللعرب النجدة والقري والوفاء والبلاد والجود والذمام والخطابة والبيان. ثم إن الفضائل المذكور في هذه الأمم المشهورة، ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها ثم في جملتها من هو عار من جمعيها، وموسوم بأضدادها"[٤]ولا ريب أن الحضارات تبنى من اجتماع تلك الفضائل وتكاملها.

---

(١) د. فرانتز روزنتال: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة د. أنيس فريجة، مراجعة د. وليد عرفات، دار الثقافة لبنان، ١٩٦١، ص١٨٩.

(٢) د. فرانتز روزنتال: مناهج العلماء المسلمين، مرجع سابق، ص١٩٢، والنص لأبي حيان التوحيدي من المقابسات، ص٢٦٠.

(٣) روزنتال: مناهج العلماء المسلمين، مرجع سابق، ص١٩٣.

(٤) أبو حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع، ج١/ ص ٧٤.

الثاني: أن الحضارة الغربية المعاصرة لا تتحاور وإنما تسعى إلى فرض هيمنتها على غيرها، في محاولة منها نفي الآخر غير الغربي واعتباره عدوا، بل تسعى إلى إقصائه أو تطويعه وتحويله إلى مادة استهلاكية. فمن الثابت أن الحضارة الغربية قد تقدمت في الماديات تقدما هائلا ولكنها في الوقت نفسه افتقرت في الجانب الروحي بنفس البون الذي قطعته في الماديات بحيث استطاع الإنسان الغربي أن يسرى في رحلاته الفضائية إلى الكواكب الأخرى بحثًا عن الحياة وموارد جديدة وأصبح الطريق معهودًا له، ولكنه على الرغم من اتصاله بهذه العوالم بات عاجزًا عن التواصل مع الآخر الذي قد يعيش معه على بعد خطوات منه، فإذا كان قادرا هناك في الفضاء فإنه عاجز هنا على الأرض، بل تزداد المسافة التواصلية مع غيره يوما بعد يوم، ومن ثم فلم يعد للإنسان كإنسان قيمة، لأن كل واحد قد انكفأ على ذاته يأنس بأثرتها، ولعل أمراض الاكتئاب والتوحد والجنون وفقدان الثقة وعدم الرغبة في الحوار، وتعاطي المخدرات وارتفاع نسب الاغتصاب وغيرها من المآسي التي قد تنهي الحياة كلها في عيادات الانتحار قد تعطي مؤشرا على هذا الحال، وبناء عليه فالغرب لا يرغب إلا في حوار يحقق مصالحه ولذاته فقط وفقا للنزعة الفردانية الغالبة، أما غير ذلك فلا يعترف به ولو كان إنسانا مثله. وهذا أمر طبيعي لإنسان لا يعترف إلا بالماديات والمحسوسات ولا يبحث بتفكيره عن الغايات من وراء الأشياء، باعتبار أن ذلك وهم لا قيمة له، ومن ثم فهو فاقد للمعنى والهدف والغاية. وانحصر تفكيره في ظواهر الأشياء ووسائلها وآلات الإنتاج بحيث أصبح الإنسان لا يستعمل الآلة فحسب، ولكن الآلة هي التي تستعبده، ولا نملك إلا أن نقول كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار. ولا ريب أن هذا نوع من الظلم، وهو ظلم الإنسان لنفسه الذي يؤدي به إلى عدم الرغبة في الحياة بعد أن جرب فيها كل شيء بحثًا عن ذاته في عالم

الأشياء فلم يجدها، ومن ثم يريد أن يخطو نحو الفناء هربا من الدنيا، ويرى ابن خلدون أن من أسباب سقوط الحضارات ودمارها هو الظلم فهو مؤذن بخراب العمران يقول: "إن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع"(١)، وما توصل إليه ابن خلدون من خلال استقرائه للحضارات السابقة يؤكده علماء الحضارة الغربية حيث يقول الكاتب الإنجليزي جود: "إن الحضارة الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق؛ فالأخلاق متأخرة جدا عن العلم، فقد منحتنا العلوم الطبيعية قوة هائلة، ولكننا نستخدمها بعقل الأطفال والوحوش... فالانحطاط هو خطأ الإنسان في فهم حقيقة مكانته في الكون، وفي إنكاره عالم القيم، الذي يشمل قيم الخير والحق والجمال"(٢) ويقول ألكسيس كارليل: "قلما نشاهد أفراد يتبعون مثلا أخلاقيا أعلى في تصرفاتهم في المدنية العصرية... مع أن جمال الأخلاق يفوق العلم والفن من حيث إنه أساس الحضارة"(٣)

ويرى توينبي(١٨٨٩-١٩٧٥) أن السبب الذي يؤدي إلى انهيار الحضارة الغربية هي تقديسها لوثن يسمى الدولة الإقليمية (كالكنائس الطائفية) ويعترف أن الحضارة الغربية على الرغم من التطور المادي الذي بلغته إلا أنها تشعر بجوع روحي كبير، وهذا الفراغ الروحي هو الذي دعاها إلى عبادة النازية والفاشية من حيث إنه لابد من وجود عقيدة دينية، وإن الذي يضمن بقاء الحضارة واستمراها هو المحافظة على الحرية الشخصية التي تكفل حرية العمل والإبداع وكذلك العدالة الاجتماعية ومن مجموع التوازن بينهما وجد مصطلح الديمقراطية، الذي أصبح مجرد شعار، ويفضل مصطلح الإخاء على

(١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص٤٠٤.

(٢) نقلا عن أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج، مجلد٤، ص٧٧٠.

(٣) ألكسيس كارليل: الإنسان ذلك المجهول، مرجع سابق، بتصرف يسير، ص١٥٣.

الديمقراطية[١] ويرى أيضا أنه يلزم أن يكون هناك نظام اشتراكي عالمي يحفظ حقوق كل فرد في داخل المجتمع في ظل نظام عالمي بدلا من تلك الدول الإقليمية، وأن يعود الناس لخالقهم.[٢] ولكن التشكيك في الدين وتطبيق قواعد العلم التجريبي عليه قد أدت إلى فقدان الدافع الرسالي الديني، ومن ثم "فحماس الغربيين لدينهم المسيحي في بداية قرنهم الواحد والعشرين لم يعد كما كان في القرن الثامن عشر ولم يطرأ هذا الفتور في الحماس الديني بسبب التأثر بالحضارات الأخرى في المكان الأول، وإنما كان أساسه بسبب دراساتهم العلمية لأصول دينهم التاريخية، تلك الدراسات التي شككت في الثبوت التاريخي لكثير من نصوصه، والتي أثبتت أن هذه في النصوص تناقضا ومخالفة لبعض الحقائق العلمية مما نشأ عنه انقسامهم إلى أصوليين أكثرهم من العوام يؤمنون بحرفية ما في كتابهم المقدس وليبراليين يعتقدون أنه ما كل ما فيه من عند الله وأنه تأثر بالظروف الثقافية للزمن الذي كتب فيه. ثم كان التطور في مجال العلوم الطبيعية سببا آخر؛ لأن منهج هذه العلوم يقوم على عقلانية لا وجود لها في دينهم ثم زاد من ضعف الإقبال على الدين أو الاهتمام به النظام السياسي العلماني الذي يفصله عن الدولة بل وعن الحياة العامة كلها."[٣].وقد توقع د. مصطفى النشار انهيار العولمة وبداية عصر جديد في كتابه "ما بعد العولمة" حيث يرى أن الخمسين عاما القادمة ستشهد بزوغ دورة حضارة جديدة هي الحضارة الصينية تلي هذه الدورة التي شهدت سيطرة أوربا ثم أمريكا على العالم طيلة القرون الثلاثة السابقة على الألفية التي نعيش بداياتها الآن[٤] أي أن

(١) أرنولد توينبي: دراسة التاريخ، مرجع سابق، ص٣٦.

(٢) أرنولد توينبي: دراسة التاريخ، مرجع سابق، ص٣٣.

(٣) د. جعفر شيخ آل إدريس: صراع الحضارات، مرجع سابق، ص ١٨.

(٤) د. مصطفى النشار: ما بعد العولمة، ص٣٩، و١٣٤.

ذلك سيتم على أقصى تقدير ٢٠٥٠م وإن كان يرى غيره أنها ستتسلم ريادة العالم مع عام التنين الصيني ٢٠٢٤، وأيًّما كان الأمر فإن دورة الحضارة الغربية ستنتهي؛ لأنها فاقدةٌ عناصر استمرارها وستسلم الراية عما قريب للصين الآسيوية.

غاية الأمر أنه قد اتضح من العرض السابق لصور التفاعل بين الحضارات المختلفة أن العلاقات الحضارات التي تقوم على الصراع وكذلك الصدام، وهي أهم النظريات التي قدمها الغرب لا تقوم على الحوار أو تستدعيه من أي سبيل وإنما تستعلى على الحوار وتستبدل الحوار بالقوة والسيطرة، في حين أن دعوات التعارف والتكامل والتحالف والتواصل صدرت عن طرف إسلامي يسعي جهده إلى مد يده لبناء جسور مختلفة من الحوار الحضاري في عالمنا المعاصر.

* *

قائمة المصادر والمراجع

- أبو حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة، ج١، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- إدوارد سعيد: صدام المفاهيم، الكرمل، فصلية ثقافية، عدد ٥٣، خريف١٩٩٧.
- آرنولد توينبي: الحضارة في الميزان، ترجمة أمين محمود الشريف، مراجعة، محمد بدران، سلسلة آفاق ثقافية، عدد٣٤، القاهرة، ط٢/٢٠٠٦.
- أرنولد توينبي: دراسة التاريخ، فؤاد محمد شبل، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة، مكتبة الأسرة ١٩٩٤.
- حسن حنفي(د): صراع الحضارات أم صراع الثقافات: نماذج متبادلة، مجلة الفكر العربي، مركز الإنماء القومي، لبنان، عدد١١٤، ١١٥، سنة ٢٠٠٠.
- حسن عزوزي: الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري في عصر النهضة، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث مجلد ٦، العدد٢٣، ١٤٣١-٢٠١٠.
- الحوار وتحالف الحضارات، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ٢٠٠٩.
- رالف بارتن بيري: أفاق القيمة دراسة نقدية للحضارة الإنسانية، ترجمة عبد المحسن عاطف سلام، مراجعة محمد على العريان، تقديم زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١.
- روزنتال (فرانتز): مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة د. أنيس فريجة، مراجعة د. وليد عرفات، دار الثقافة لبنان، ١٩٦١.

- زكي الميلاد(د): المسألة الحضارية كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير؟، المركز الثقافي العربي، مكتبة مؤمن قريش، الدار البيضاء، المغرب، ط١/١٩٩٩.
- صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ط٢/٢٠١٥.
- عبد الرزاق الدواي: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة، المركز العربي للسياسات، الدوحة، ط١/٢٠١٣.
- عبد العزيز التويجري(د): صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو- ط٢/٢٠١٥.
- عبد الوهاب المسيري(د): في نهاية التاريخ وصراع الحضارات، بحث منشور ضمن كتاب صراع الحضارات أم حوار الثقافات، تحرير، د. فخري لبيب، منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية، المنيل، القاهرة، ١٩٩٧.
- على ليلة (د): تفاعل الحضارات بين إمكانيات الالتقاء واحتمالات الصراع، دار شركة الحريري للطباعة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، ط١/٢٠٠٦.
- عمر فروخ(د): العرب في حضارتهم وثقافتهم، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢/١٩٨٢م.
- فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ، ترجمة وتعليق حسين الشيخ، دار العلوم العربية، بيروت ط١/١٩٩٣.
- مصطفى غلوش: الفلسفة البنيوية رؤية نقدية، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، ط١/١٩٨٩.
- فوكوياما(فرانسيس): نهاية التاريخ، ترجمة وتعليق حسين الشيخ، دار العلوم العربية، بيروت ط١/١٩٩٣.

- قيس ناصر راهي: صدام الحضارات دراسة نقدية في جالينوم المفهوم، العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ط١/٢٠١٧.
- مازليش(بروس): الحضارة ومضامينها، ترجمة عبد النور خراقي، سلسلة عالم المعرفة ٤١٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مايو ٢٠١٤.
- محمد أحمد عبد القادر(د): الفكر الإسلامي المعاصر الواقع والمأمول، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٩.
- محمد خليفة حسن أحمد(د): الحوار منهجا وثقافة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، ط١/٢٠٠٨.
- محمد عبد الغني شامة(د): حوار الأديان ودور الدعوة الإسلامية في مواجهة التحديات، مكتبة وهبة، ط١/٢٠٠٧.
- محمد عبد الهادي أبو ريدة(د): الإسلام والحضارة، ج٣، حققه وقدم له د. فيصل بدير عون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١/ ٢٠١١.
- محمد عمارة(د): الجامعة الإسلامية والفكرة القومية نموذج مصطفى كامل، دار الشروق، ط١/١٩٩٤.
- محمد هيشور: سنن القرآن الكريم في قيام الحضارات وسقوطها، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١/١٩٩٦.
- محمود حمدي زقزوق(د): الإسلام وقضايا الحوار، ترجمة د. مصطفى ماهر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطابع الأهرام، القاهرة ٢٠٠٢.
- محمود حمدي زقزوق(د): الإسلام وقضايا الحوار، ترجمة د. مصطفى ماهر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطابع الأهرام، القاهرة ٢٠٠٢.
- مصطفى النشار(د): ما بعد العولمة قراءة في مستقبل التفاعل الحضاري وموقعنا منه، دار قباء، ط١/٢٠٠٣.

- معزة مصطفى أحمد فضل السيد: الإعلام الرقمي وانعكاساته على التعارف بين الحضارات دراسة وصفية تحليلية على عينة من الخبراء والمختصين في الإعلام من مايو٢٠١٤-٢٠١٧م، رسالة دكتوراه، كلية علوم الاتصال، قسم الإذاعة، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، السودان، ٢٠١٧.
- المنجي بوسنينة: من حوار الثقافات إلى تحالف الحضارات إشكاليات اليوم ورؤى المستقبل، الندوة الدولية التي عقدتها الإيسيسكو "الحضارات والثقافات الإنسانية من الحوار إلى التحالف"، تونس، يناير ٢٠٠٧.
- منير شفيق: الإسلام في معركة الحضارة، دار البراق للنشر، تونس، ط١/١٩٩١.
- المهدي المنجرة (د): الحرب الحضارية الأولى، مكتبة الشروق، ط١/١٩٩٥.
- ناصر الدين الأسد(د): حوار الحضارات تحرير المصطلح والمنهج، منشور ضمن كتاب حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي، مراجعة وتقديم خالد الكركي، مؤسسة عبد الحميدة شومان، عمان، الأردن، ٢٠٠٤.
- هنتنجتون (صامويل): صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، تقديم صلاح قنصوة، سطور، ط٢/١٩٩٩.
- يحيى محمد، حضارة بين حضارتين. الحوار المتمدّن. العدد ٣٠٧٣. ٢٠١٠/٠٧/٢٤ م:www.alhewar.org -

* * *